الفصل الرابع

أحوال المسند

المقصود بأحوال المسند : ما يعرض له من ذكر أو حذف أو تقديم أو تأخير والتي تطابق مقتضى الحال .

الأسرار البلاغية في حذف المسند :

إن حذف المسند هو لون من ألوان الأداء الفني يكون حسنًا في بابه جميلا في موضعه حين يأتي استجابة لحال الخطاب ، بحيث يكون التعبير الأمثل في موقف من المواقف لا يغمض به الكلام ، ولا يلتبس معه الفهم ولا يشقى به المعنى اعتمادًا على ما يشير إليه ، ويدل عليه من قرينة لفظية أو معنوية تفهم من دلالة السياق .

ومن الدواعي التي تدعو إلى حذفه على حسب ما رصده البلاغيون في البيان العربي ضيق صدر الإنسان ، وتوجعه والتياعه وحزنه الذي يفرض عليه تقليلا في كلامه وحذفًا لبعض فضوله ، وتعبئة وشحنًا وتركيزًا .

انظر إلى ما يطالعك منه في قول ضابئ بن الحارث البرجمي وهو يعاني من غياب الحرية ، ومن ظلام السجن ، ومن آصار القيد ، وذل الحبس .

ومن يك أمسى بالمدينة رحله فإني وقيار بها لغريب

فالشاعر أسير في المدينة المنورة في عهد ذي النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه وفي بيته تشيع رنة حزن وجيعة ، ونبرة ألم ممضة ؛ حيث يشكو مرارة الغربة التي تعصف بوجوده كله، والتي لا تخلف له سوى الأسى الذي يرمض القلوب،

ويثير دفائن الهم ، ويمزق الفؤاد ويبعث بالوحشة في القلب ، وبالضيق والكمد في الصدر ، خاصة وهو ينظر حوله فلا يرى سوى نفسه التي تركض في القيد ، وتضطرب اضطراب المهيض في القفص بعيدًا عن الأهل والولد ، في الوقت الذي ينعم فيه غيره بدفء الحرية ، ورغد العيش ، وانطلاق الحياة ، وجمع الشمل .

والشاعر المحزون هنا لم يساعده التياعه ، ولم تدعه أحزانه يتمم أركان عبارته ، فذكر منها ما ذكر وترك ما يدل السياق عليه وما هو مفهوم من دلالة الخطاب ، فترك المسند وهو غريب إذ المعنى إني لغريب وقيار أيضًا لقصد الاختصار والاحتراز عن العبث في الظاهر مع ضيق المقام بسبب الحزن والتوجع ، وقيار هو فرس الشاعر أو جمله والبيت مطلع قصيدة منها[1] .

ورب أمور لا تُضيرك ضَيْرة ... وللقلب من مَخْشَاتِهِنّ وجيب

وما عاجلاتُ الطير تُدْني من الفتى ... نجاحا ولا عن رَيْثَهِنَّ يَخيبُ

ولا خير فيمن لا يوطن نفسه ... على نائبات الدهر حين تنوب

وفي الشك تفريط وفي الحزم قوة ... ويخطئ في الحدس الفتى ويصيب

ولست بمستبق صديقًا ولا أخًا ... إذا لم تُعِد الشيء وهو مريب

ألست ترى كيف سجلت الكلمات أنات العاني ، ونشجات الباكي ، وخلجات الجناح المهيض ، وكانت انعكاسًا للأهوال التي تفجرت في وجهه ، وللآمال التي أغبرت في عينه ، وللفؤاد الكسير الذي تحطم ، وللدموع الهاطلة التي لم ترقأ ، وللجروح النازفة التي لم تندمل ، وللصوت الجازع المكروب الذي يتوجع ، ومع هذا فقد احتشدت فيها تجربة الشاعر مع الأيام وخبرته بالحياة والأحياء .

(١) معاهد التنصيص على شواهد التلخيص ١٨٦/١ ، ١٨٧ .

فلا العجلة تدني الإنسان ، وتقربه من النجاح ، ولا التريث يضيع الرجاء ويخيب الآمال ، وأنه ليس ثمة من سبيل إلى توقي غير الدهر ، والعصمة من كوارثه ، والناس في هذه الدنيا أهداف للمصائب ، وأغراض للنوائب ولا خير فيمن لا يوطن النفس على رزايا الدهر ، ويحتملها في رضى ، وعدم جزع حين تحل بساحته ، وتنزل بداره ، وأن العاقل يجب أن يمضي في طريق الحياة جسوراً لا يتردد فإن في التردد تضييعًا ، وفي الحزم قوة ومن طبيعة الإنسان أن يخطئ فيما يتوهمه وأن يصيب ، فلا تتوقع نجاحًا في كل أمر تصيبه حتى لا تحزن عليه إن فاتك وأخطأك ، والتمس الأعذار للأصدقاء وحافظ عليهم ؛ لأنك لن تبقى لا على صديق ولا أخ إذا لم تعد الشيء وهو مريب .

ومثل هذا الشاهد في حذف المسند لضيق صدر الشاعر ما تراه في قول قيس بن الخطيم :

نحن بما عندنا وأنت بما ... عندك راضٍ والرأيُ مختلف

في قصيدة مطلعها :

رد الخليطُ الجِمَال فانصرفُوا ... ماذا عليهم لو أنهم وَقَفوا ؟

لو وقفوا ساعة نُسَائِلُهم ... رَيْث يُضَحّي جِمَالُه السَّلَفُ

فيهم لعوبٌ لعسْاءُ آنسةُ السـ ... ـدل عروب يَسوؤها الخلفُ

بين شُكُولِ النساء خِلْقتُها ... قَصْدٌ فلا جثلة ولا قَصفُ

تَنَامُ عن كُبْر شأنها فإذا ... قامت رُوَيدًا تكادَ تنعطفُ

والأبيات مع الشواهد في معاهد التنصيص ، والشاعر في شاهد الحذف بين أن كلا منهما راض برأيه ، مقتنع به وإن كان الرأي مختلفًا ، والمسند محذوف ، وتقدير الكلام : نحن راضون بما عندنا ، فقوله : «راض» خبر المبتدأ الثاني وخبر المبتدأ الأول محذوف ، والسبب وراء هذا الحذف هو ضيق صدر الشاعر بسبب الخلاف القائم بينه وبين خصومه .

هذا وحين تعقد مقارنة بين الحذف في بيت ضابئ في قوله :

ومن يـكُ أمسـى بالمدينـة رحلـه فـإني وقيـار بـها لغريـب

وبين الحذف في بيت قيس :

نحن بـما عنـدنا وأنـت بـما عنـدك راضٍ الـرأى مختلـف

تجد الحذف في بيت ضابئ إنما كان من الجملة الثانية لدلالة الأول عليه وأصل الكلام فإني لغريب بها وقيار غريب ، ولا يمكن أن يكون غريب خبراً عنهما ؛ لامتناع العطف على محل اسم إن قبل مضي الخبر ، إذن فالحذف إنما تم لوجود ما يدل عليه ويشير إليه .

والذكر للمسند في الكلام بعد الإشارة الواضحة عبث في التعبير البياني يجب أن يبرأ منه كلام البليغ ويسلم ، فإذا أضفت إلى ذلك ما يعانيه الشاعر من ضيق بسبب هذه الغربة القاسية ، وما تجره عليه من آلام نفسية وجسدية تجعله ضيق الصدر ، كئيب النفس ، موزع الخاطر يكابد ويعاني من همومه وأحزانه ، كان الحذف هنا متوافقًا مع حال الشاعر ، متلائمًا مع ما يقاسيه ؛ إذ جاء حكاية له في ميله إلى الوجازة ، وتعبيراً عن رغبته في اختصار الكلام ، وعدم الإفاضة في الحديث ، والتقليل منه .

هذا وتلاحظ في البيت لطيفة أسلوبية عمد إليها الشاعر وقصدها قصداً فكانت رائعة من روائع البيان ، إذ أراد أن يشرك جمله معه في إحساسه الموحش بهذه الغربة القاتلة وبهمومها الثقيلة ، فإذا كان الشاعر يعاني فإن جمله معه يعاني ؛ ولذا قدم قياراً على خبر إن وجعله يحتل مكانه بين عنصريها فلم يقل : فإني لغريب بها وقيار ، وإنما قال : فإني وقيار بها لغريب .

وهكذا ترى الشاعر يسوي بينه وبين حيوانه في مشاعر الحزن ، والحسرة ، والالتياع التي خلفها هذا الاغتراب بعد أن قذف بالشاعر في ظلام السجن ،

ورمى به في مهاوي التيه والضياع ، والذي حقق هذه الفضيلة هو تقديم «قيار».

ولو أنه أخر فقال «وإني لغريب بها وقيار» لجاز أن يتوهم مزيته عليه في التأثر بالغربة ؛ لأن ثُبوت الحكم أولا أقوى على حد تعبير صاحب معاهد التنصيص عند حديثه عن هذا الشاهد نقلاً عن صاحب المطول ـ رحمه الله ـ حيث قال : «والسر في تقديم قيار على خبر إن قصد التسوية بينهما في التحسر على الاغتراب كأنه أثر في غير ذوي العقول أيضًا .

بيان ذلك أنه لو قيل إني لغريب وقيار ، لجاز أن يتوهم أن له مزية على قيار في التأثر بسبب الغربة ؛لأن ثبوت الحكم أولا أقوى فقدمه ليتأتى الإخبار عنها بحسب الظاهر تنبيهًا على أن قيارًا مع أنه ليس من ذوي العقول قد تساوى والعقلاء في استحقاق الإخبار عنه بالاغتراب قصدًا إلى التحسر[1].

وفي قول قيس :

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأي مختلف

فإنه قد حذف المسند إليه من الأولى لدلالة الثانية عليه عكس السابق والحذف هنا لا يفيد شيئًا غير ما يفيده من الاختصار .

ومن الحذف الذي قد حذف من الثاني لدلالة الأول عليه ما تراه في قوله تعالى في سورة التوبة : ﴿ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ (التوبة:٦٢) إذ تقدير الكلام : والله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك ، لكن الصياغة الشريفة نحت هذا المنحى لبيان فضل الرسول وأهمية طاعته ، وإرضائه ، فقد تتوجه الهمم إلى إرضاء الله ، وتتقاعس في إرضاء الرسول ﷺ ؛ لذا قدّم الرسول في الآية على المسند المذكور الذي دل على المحذوف إيماء إلى درجة الرسول العالية ، ومنزلته الرفيعة عند الله سبحانه وتعالى .

---

(١) المطول ص ١٤٠ .

وقد يحذف المسند اتباعًا للاستعمال الوارد كما تراه في قول الأعشى :

إن محلاً وإن مرتحلاً ... وإن في السفر إذ مضوا مهلاً

فالشاعر يريد أن يقول : إن لنا في الدنيا حلولا إلى حين وإن لنا عنها إلى الآخرة ارتحالا ، وإن من مضى من الراحلين قد أوغلوا في غيبتهم فلم يعودوا وإن الجميع على الطريقة سفر راحلون ، فلا أحد يبقى ولا أحد يستمر الكل يمضي على مدرجة الحياة حينًا من الدهر ، ثم يختفي أطوار من الخلائق تنتظم في سلك الدنيا ثم يطويها العدم .

والشاهد حذف المسند تبعًا للاستعمال الوارد ، وتقدير الكلام : إن لنا محلاً وإن لنا مرتحلاً ؛ إذ إنهم في استعمالاتهم يحذفون خبر « إن» عند تكرارها ، وتعدد اسمها كما تراه في هذا البيت ، سواء كان الاسم نكرة كما هنا أو معرفة كأن يقال لك : إن خصومك من الكثرة بحيث لا يحصرهم العد ، فتقول : إن زيدًا وإن محمدًا أي لي زيدًا وإن لي محمدًا .

ومثله ما يقوله الرجل للرجل : هل لكم أحد إن الناس إلب عليكم فيقول : إن زيدًا وإن عمرًا هذا .

ومن الدواعي التي تحث على حذف المسند فيحذف من أجلها الاحتراز عن العبث في ذكره لأنه مدلول عليه بواسطة القرينة ، القرينة اللفظية أو المعنوية ، كما في قوله تعالى في سورة الأحقاف : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَـٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾ (الأحقاف:٢٠) فتقدير الكلام ، يقال لهم : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَـٰتِكُمْ ﴾ فحذف المسند (يقال) لوجود القرينة التي تبين أن المسند مفهوم من سياق الكلام ولوجود شواهد في القرآن تشير إلى أنهم يقال لهم كما ورد في سورة الزمر في قوله تعالى : ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا

قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ (الزمر: ٧١، ٧٢) .

وانظر إلى قول الله في سورة الإسراء : ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴾ (الإسراء: ١٠٠) .

فقد حُذف المسند إلى ضمير المخاطبين وهو «أنتم» فأنتم إذن فاعل لفعل محذوف لأن «لو» لا تدخل على غير الأفعال ، فحذف الفعل احترازًا عن العبث ، وتقدير الكلام : «تملكون تملكون» فحذف تملكون الأول وأبدل من ضميره المتصل ضمير منفصل احترازًا من العبث في ذكره لدلالة «لو» عليه ولوجود المفسر وهو الفعل المذكور .

قال صاحب الكشاف : هذا ما يقتضيه علم الإعراب فأما ما يقتضيه علم البيان فهو أن أنتم تملكون فيه دلالة على الاختصاص ، وأن الناس هم المختصون بالشح المتبالغ لأن الفعْل الأول لما سقط لأجل المفسر برز الكلام في صورة المبتدأ والخبر يعني كما أن قولنا : أنا سعيت في حاجتك وهو مبتدأ وخبره يفيد الاختصاص ، فكذا لو أنتم تملكون لكونه مثله في الصورة»[1] .

وهكذا يكون الحذف للمسند احترازًا عن العبث في ذكره في كل كلام ذكرت فيه أداة تختص بالأفعال ودخلت على الاسم ، وتجد ذلك في قولهم في المثل العربي : «لو ذات سوار لطمتني» ، فتقدير الكلام : لو لطمتني ذات سوار لطمتني .

وعلى هذا النحو ما تجده في قول بشار بن برد :

إذا أنتَ لم تشربْ مرارًا على القذى ظمِئتَ وأيُّ الناسِ تصفو مشاربُه

لأن إذا لا تدخل إلا على جملة فعلية ، فالمسند محذوف تقديره : إذا لم تشرب .

---

(١) المطول ، ص ١٤٢ .

وقوله تعالى في سورة التوبة : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ (التوبة:٦) وتقدير الكلام : وإن استجارك أحد فحذف المسند في هذه الأمثلة لأن هذه الأدوات لا تدخل على الأسماء ، وإنما اختص دخولها بالفعل . أي وإن استجارك أحدٌ من المشركين استجارك .

وقد يكون الحذف لتكثير الفائدة بإمكان حمل الكلام على حذف المسند أو على حذف المسند إليه ، كما في قوله تعالى في سورة يوسف حكاية عن يعقوب ـ عليهما السلام : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ (يوسف:١٨) أي فصبر جميل أمثل من غيره على أساس حذف المسند ، أو أمري صبر جميل فيكون المحذوف المسند إليه .

ففي الحذف زيادة في الفائدة وتكثير لها بإمكان حمل الكلام على المعنيين وصلاحية النص الكريم لهما ، بخلاف ما لو ذكر فإنه يكون نصًّا في أحدهما .

والصبر الجميل هو الذي لا شكوى فيه ، وقد آثر صاحب المطول حذف المسند إليه واستشهد لذلك بأن حذف المسند إليه أكثر ، فالحمل عليه أولى وبأن سوق الكلام لمدح يعقوب عليه السلام بحصول الصبر له وتحققه لديه وذلك إنما يكون بحذف المسند إليه أمري صبر جميل ، بخلاف ما لو حذف المسند وأخبره عن الصبر بأنه أجمل أو أمثل ؛ لأن ذلك لا يدل على حصول الصبر له وبأنه في الأصل يقصد « صبر » من المصادر المنصوبة أي صبرت صبرًا جميلا ، وحمله على حذف المسند إليه موافق له دون حذف المسند .

ويرجح حذف المسند إليه أيضًا بقراءة من قرأ ﴿ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً ﴾ بالنصب فإن معناه اصبر صبرًا جميلاً ، وبأن الأصل في المبتدأ التعريف فحمل الكلام على وجه يكون المبتدأ معرفة أولى[1].

---

(١) المطول ص١٤٢ .

ومن الصور التي تحتمل الوجهين حذف المسند ، أو حذف المسند إليه ما تراه في قوله تعالى في أول سورة النور : ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا ﴾ فمن الممكن أن يكون المحذوف المسند إليه ، والتقدير للكلام على هذا يكون : هذه سورة أنزلناها ، ومن الجائز أن يكون المحذوف المسند فيكون تقدير الكلام : فيما أوحينا لك سورة أنزلناها .

وتجد هذا في قوله تعالى في نفس السورة ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ﴾ (النور:٥٣) فمن الممكن أن يكون المحذوف هو المسند إليه ، ويكون الكلام مبنيًّا على تقدير طاعتكم معروفة ، أو أمركم الذي يطلب منكم طاعة معروفة كطاعة الخلص من المؤمنين الذي طابق باطن أمرهم ظاهره ، لا أيمان تقسمون بها بأفواهكم وقلوبكم على خلافها ، أو طاعتكم طاعة معروفة أي أنها بالقول دون الفعل ؛ إذ الحديث عن المنافقين ، وترى في كل هذا المحذوف المسند إليه ومن الممكن أن يكون المحذوف هو المسند ، فيكون الكلام مبنيًّا على تقدير طاعة معروفة أمثل وأولى يتم من هذه الأيمان الكاذبة[1] .

ومما يحتمل الوجهين حذف المسند إليه في قوله تعالى في سورة النساء : ﴿ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ﴾ (النساء:١٧١) وهذا القول الكريم قد وقف أمامه عبد القاهر وأطال الوقفة وأدار حوله نقاشًا يتميز بالسلامة والعمق ، وأشد ما يروعك منه قوة الاستدلال ، وحركة العقل إذ تراه كالغواص الماهر لا يقف عند السطح وإنما يضرب بقوة ذهنه في الأعماق والأغوار حتى يخرج بالفكرة ناضجة مستوية بعد أن جلاها على الوضع الماثل في ذهنه ، وقد تأتي في بعض المواضع غامضة وعذر الرجل أنه يحسبها ظاهرة واضحة كظهورها عنده ووضوحها لديه ، فهو يقف أمام القول الكريم :

---

(١) التلخيص في علوم البلاغة ص١٠٤ .

﴿ وَلَا تَقُولُوا ثَلَٰثَةٌ ﴾ دارسًا فاحصًا مقلبًا للقول على كل وجوهه وكافة احتمالاته مبينًا فساد ما فيه من فساد والسر في ذلك ، فهو يبدأ حديثه بذكر الكلام في القول الكريم ويقف أمام كلمة (ثلاثة) ليبين السر في رفعها وموقعها الإعرابي ، ويناقش ما ذهب إليه البعض من أنها خبر مبتدأ محذوف وقدروا هذا المبتدأ المحذوف بـ (آلهة) ويكون تقدير الكلام على هذا» ولا تقولوا آلهتنا ثلاثة) .

ويرفض عبد القاهر صحة تقدير هذا المبتدأ ؛ لأن فيه شبهة إثبات أن هاهنا آلهة ـ تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا ـ ولا عبرة بالنفي الموجود لأنه يتعرض لنفي الآلهة ، وإن كان ينفي أن تكون عدتها ثلاثة ، لأنك حينما تنفي شيئًا عن شيء في المبتدأ أو الخبر ، فإنما تنفي المعنى المستفاد من الخبر عن المبتدأ أنت تنفي الحكم أما المحكوم عليه فثابت لا يتعرض النفي إليه وساق لذلك الشاهد ذلك أنك حين تقول : ما زيد منطلقًا أنت هنا نفيت المعنى المستفاد من الخبر عن المبتدأ ، نفيت الانطلاق الذي هو معنى الخبر أما «زيد» فلم يتعرض نفيك إليه فهو ثابت لم يمسه شيء ، ومن ثَمَّ فإذا قلت : «ولا تقولوا آلهتنا ثلاثة» فإن نفيك على المعنى المستفاد من الخبر وهو ثلاثة .

تنفي أن يكون عدد الآلهة ثلاثة ، ولكنك لا تنفي المبتدأ «آلهة» جل الله عن ذلك .

ولزيادة التوضيح ولدفع الشبهة ساق شاهدًا آخر فبين أنك حين تقول : ليس أمراؤنا ثلاثة ، فالنفي مسلط على المعنى المستفاد من الخبر عن المبتدأ تنفي أن يكون عدد الأمراء ثلاثة ، ولكنك لا تنفي أن هناك أمراء ولذا رفض عبد القاهر هذا التقدير ، ورأى أنه يجب العدول عنه إلى غيره مما لا يشبهه لإثبات الآلهة فيه ، ولذا فإن المحذوف في الآية يمكن أن يكون المسند ويكون الكلام مبنيًا على تقدير «ولا تقولوا لنا أو في الوجود آلهة ثلاثة» وتكون الجملة القرآنية مبنية من مبتدأ وصفة وخبر مقدم فالمبتدأ : هو «آلهة» والصفة

هي قوله سبحانه «ثلاثة» والخبر المقدم هو : «لنا أو في الوجود» ثم حذف الخبر وهو «لنا أو في الوجود» وحذفه مطرد إذ هو نظير الحذف في «لا إله إلا الله» أي موجود «وما من إله إلا الله» أي إله موجود ، ثم إن حذف الموصوف «آلهة» واقع في الكلام العربي فصار الكلام بعد الحذف «ولا تقولوا ثلاثة».

ويحتمل أن يكون الحذف من باب حذف المسند إليه ويكون الكلام مبنيًّا على تقدير «ولا تقولوا الله والمسيح وأمه ثلاثة» أي لا تعبدونهم كما تعبدون الله ولا تسووا بينهم وبينه ، إذ قد استقر في عرفهم أنهم إذا أرادوا إلحاق اثنين بواحد في وصف من الأوصاف وأن يجعلوهما شبيهين له قالوا «هم ثلاثة ، كما يقولون إذا أرادوا إلحاق واحد بآخر وجعله هما اثنان ، وعلى هذا السبيل كأنهم يعدون معدًّا واحدًا ويوجب لهم التساوي والتشارك في الصفة والرتبة»[1].

وتعرض عبد القاهر لقوله في سورة التوبة :

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ (التوبة:٣٠) وبين الوجه في قراءة من منع التنوين من قوله (عزير) وملخص كلام الإمام في هذه القضية أن حذف التنوين محمول على وجهين ، أحدهما صالح والآخر فاسد .

أما الصالح أن يكون التنوين في (عزير) مرادًا ولكن حذف للتخلص من التقاء الساكنين ، الساكن الأول في نون التنوين والساكن الثاني في «باء» (ابن) ذلك أنك مع قراءة التنوين في (عزير) تجدك مضطرًا إلى أن تختلس كسرة خاطفة على نون التنوين تعينك على نطق «الباء» الساكنة في (ابن) وعلى هذا «فعزير ابن الله» بالتنوين هو «عزير ابن الله» في قراءة من حجب التنوين ، والتنوين مراد وحذفه إنما هو للتخلص من الساكنين .

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٢٤٩ .

و ﴿ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ على هذا جملة تامة الأركان ، ولا حذف فيها وحذف التنوين على هذا الأساس في عزير كحذفه من قوله تعالى :

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ (الإخلاص:١،٢) في قراءة من ترك التنوين من [أحد] فمن يقرأ بغير تنوين يكون توجيه الكلام في قراءته على نحو ما أشرنا إليه وتكون القراءة غير مخالفة لما ورد على ألسنة العرب وجرى في كلامهم حيث يجرون حركة خاطفة سريعة يحركون بها التنوين ، أو يحذفون هذا التنوين تفاديًا لالتقاء الساكنين .

أما الوجه الفاسد الذي رفضه الإمام ومضى يبين وجه الفساد فيه ويستشهد لذلك بصحيح القول الذي جرى اللسان به وسلم من الخطأ في المعنى ، فهو أن يكون الكلام في قوله تعالى :

﴿ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ بدون تنوين مبنيًا على حذف المسند ويكون التقدير «عزير ابن الله معبودنا» وعلى هذا يكون «عزير ابن الله» مبتدأ ومعبودنا خبر ، وهذا فاسد لما يقيمه من إشكال عقائدي نعوذ بالله من هذا الفهم ذلك أن الكلام على هذا النحو .

«عزير ابن الله معبودنا» فيه إثبات المسند إليه ﴿ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ وتحققه ووجوبه وعدم خروجه من حيز النفي ومن دائرته ، ذلك أن كلمة «ابن» في القول الكريم صفة لـ ﴿ عُزَيْرٌ ﴾ وحذف التنوين من ﴿ عُزَيْرٌ ﴾ يجعل الإنكار لا يتجه إلى الصفة فهي ثابتة وإنما يتجه إلى الخبر .

وآية ذلك أنه إذا ادعى إنسان دعوى فقال «زيد بن محمد سيد» وأردت تكذيبه في ذلك وإنكار ما ادعاه ، فإن التكذيب لا ينصرف إلى الصفة «ابن» ولا ينالها ، وإنما يتجه إلى الخبر ، فأنت في ذلك أنكرت الخبر وهو أن يكون «سيدًا» ولكنك لم تنكر أن يكون «زيد بن محمد» .

ومما هو أوضح أنه لو قال إنسان : «زيد الفقيه قد قدم» وأردت تكذيبه فقلت : كذبت . فأنت لا تتوجه إلى الصفة «الفقيه» بالإنكار ، ولكنك تنكر الخبر وهو أن يكون «قد قدم» فإنكارك لم يتسلط على الصفة وهو أن يكون زيد فقيهًا ولكن تعرض للخبر تنكره ، يقول عبد القاهر في تحقيق هذا الكلام :

«هذا ما لا شبهة فيه وذلك أنك إذا كذبت قائلا في كلام أو صدقته فإنما ينصرف التكذيب منك والتصديق إلى إثباته ونفيه ، والإثبات والنفي يتناولان الخبر دون الصفة يدلك على ذلك أنك تجد الصفة ثابتة في حال النفي كثبوتها في حال الإثبات ، فإذا قلت : ما جاءني زيد الظريف ، كان الظريف ثابتًا لزيد كثبوته إذا قلت : جاءني زيد الظريف وذلك أن ليس ثبوت الصفة للذي هي صفة له بالمتكلم وبإثباته لها فتنتفي بنفيه ، وإنما ثبوتها بنفسها ، ويتقرر الوجود فيها عند المخاطب مثله عند المتكلم ، لأنه إذا وقعت الحاجة في العلم إلى الصفة كان الاحتياج إليها من أجل خيفة اللبس على المخاطب .

تفسير ذلك أنك إذا قلت : (جاءني زيد الظريف) فإنك إنما تحتاج إلى أن تصفه بالظريف ، إذا كان فيمن يجيء إليك واحد آخر يسمى (زيدًا) فأنت تخشى إن قلت : (جاءني زيد) ولم تقل الظريف أن يلتبس على المخاطب فلا يدري أهذا عنيت أم ذاك؟ وإذا كان الغرض من ذكر الصفة إزالة اللبس والتبيين ، كان محالاً أن تكون غير معلومة عند المخاطب وغير ثابتة لأنه يؤدي إلى أن تروم تبيين الشيء للمخاطب بوصف لا يعلمه في ذلك الشيء وذلك ما لا غاية له في الفساد»[1] .

وقد يحذف من الكلام المسند والمسند إليه معًا لأن دلالة السياق في الكلام المذكور تدل على المحذوف دلالة واضحة ، ولأن مقام الخطاب يقتضي هذا النوع من الحذف حتى تكون هناك مواءمة نفسية وملاءمة واضحة بين الكلام وبين المعنى الذي قيل فيه .

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٢٤٤ .

وترى ذلك واضحًا في كلام العرب عندما يستحثون الغير ، ويغرونه على شيء يقتضي السرعة السريعة التي لا تواني فيها ولا إمهال ، كما في قولهم في الحث على السرعة : «أهلك والليل» فأهلك منصوب بفعل محذوف ، والليل كذلك والمعنى : الحق أهلك وبادر الليل أي أسرع إلى أهلك خوفًا من أن يحول دون وصولك إليهم الليل ، فطرح المسند والمسند إليه من العبارة إنما كان وراءه الحرص الشديد من المتكلم على أن يلحق المخاطب بأهله بسرعة ، وأن يمضي إليهم في عجلة ، فأسقط من عبارته ما أسقط حتى يصل إليه الخبر على هذا النحو فيتصرف على أساسه .

وترى هذا أيضًا في أسلوب التحذير مثل قوله تعالى في شأن ثمود أصحاب نبي الله صالح عليه الصلاة والسلام في سورة الشمس :

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ۝ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ۝ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَىٰهَا ﴾ (الشمس:١١-١٣) ومعنى كذبت ثمود بطغواها أي بطغيانها بغلوها في الجبروت ، وعلوها في الأرض ، واعتدادها بشهوة الباطل على الحق ، وإزهاقها صوت العقل ، حين اندفع أشقاها قدار بن سالف كالوباء الماحق نحو ناقة صالح وسط تهليل قومه ، وضجيجهم ومباركتهم .

وحقًا إن أخبث أمراض الجسد ما خامر العقل فسلبه التفكير ، لقد كانت هذه الناقة لهم كالربيع الممرع ، والحياة الواعدة التي تمنحهم النضار الذائب ، والكنز المنهمر المصبوب وكانت تشرق على بيوتهم كل صباح فتتدفق عليها بالخير ، وتتنفس بالنعيم وتفيض باللبن ، وكان نبي الله صالح لمعة النور ، ونفحة الحق وكلمة الهدى ، وعصارة الرحمة ، ورسول البر .

ولقد حاول أن يخلصهم من العفن الذي يتردون فيه والضلال الذي يتمرغون في أوحاله ، خوفًا من أن يمسهم من ربهم عذاب عظيم ولكن ماذا عساه يصنع ؟ والقوم قد أعمتهم الغواية ، وفدحتهم الخطايا ، وأجهدتهم المآثم فلم

يعودوا يميزون بين الضار والنافع ، وأضحوا لا يتبينون نسمًا لطريق ، ولا يعرفون وجهًا لغاية ، ومضوا يخبطون في مجاهل كفرهم وعماهم ولقد ناداهم بأعلى صوته محذرًا ومخوفًا .

﴿ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا ﴾ إذ كانت اللهفة تنال منه كل منال ، والجرص الشديد على قومه يسيطر ، وأسقط المسند والمسند إليه من حديثه حتى يسرع بكلامه الجازع المكروب من إبعاد قومه عن جناية لو ارتكبوها فهي القاصمة والماحقة وقد كان .

إنه لم يشأ أن يتمم أركان كلامه وأن يتدفق في بيانه لأن الخطر داهم ، والجو مظلم ، والغاشية توشك أن تنزل ، لذا استغنى بالمذكور عن المحذوف تعبيرًا عن القلب الملهوف ، والفؤاد المكلوم والنفس الراجية فحذف المسند والمسند إليه « ذروا ناقة الله » وابتعدوا عنها تعبيرًا عن ذلك وحكاية له .

وقد يحذف المسند من الكلام بحذفه من الوجود لتقمؤه وضئولته وحقارته وإهمال شأنه ، وعدم الاعتداد به في مقابلة المسند إليه الذي يأتي في صورة بهية الرواء ، خالبة المنظر ، تستولي على القلوب وتملؤها مهابة وجمالاً وجلالاً .

وترى هذا النوع من الحذف إنما يكثر حين تكون هناك صور تشبيهية يذكر المشبه في صورته التي تأسر النفس وتملأ الخاطر والوجدان ، ويسقط الطرف الآخر من الصورة إيذانًا بإسقاطه من النفس وازدرائه وتركه وإهماله وكأنه ليس أهلاً لأن يوضع في الطرف المقابل من الصورة حتى لا يظن على وجه من الوجوه أنه الموازن والمماثل للطرف الآخر ، مع أن التشبيه بالنفي بينهما أي ليس هذا كذاك وتقرأ قول الله تعالى :

﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴾(الزمر:٢٢) فيطالعك أول ما يطالعك

منها هذا الاستفهام الذي يشغل ذهنك ويشعل تفكيرك ويفرض عليك أن تتملاه وأن تتأمله ، وحين تنظر فيه تجدك أمام صورة لها طرف غائب لابد أن يوضع في الخاطر مع الحاضر حتى تكتمل عناصر التكوين للمنظر ويوضع هذا بجوار ذاك .

إذن أنت أمام كلام سقط منه كلام ، والصورة المكتملة تراها على هذا النحو أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه كمن ضاق صدره بالإسلام فنبذه وبقى يركض في ظلمات الشرك ، ومجاهل الكفر أهذا خير أم ذاك ؟

ويطرح الكلام في صورة استفهام وتترك أنت لتقضي وتفصل ، والقضية واضحة الشيات ظاهرة المعالم لا لبس فيها ، إذ كيف يستوي هذا وذاك لا يمكن أن يكون النور كالظلام ، ولا الحق كالباطل ، ولا المؤمن كالكافر ، ولذا ترى الذي شرح الله صدره للإسلام على خير من ربه يتضاءل أمامه كل وصف بعد وصف القرآن له إذ قال إنه ﴿ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ واقرأ هذه العبارة مرة ومرات إنه لا يمضي في طريق مضيء ، ولا يسير على هدى من نور ، ولكنه يمشي على هذا النور نفسه وهو نور يملأ كيانه كله ، ويعم وجوده كله قلبه ، وفؤاده ، وضميره وكل ذرة منه فلا يترك شيئًا من غير أن يشمله ، وهو ليس كغيره من الأنوار وإنما هو نور كأنما كان من أجله هو لا يشاركه فيه غيره إذ هو من عند ربه .

وقف أمام الضمير في [ربه] الذي يعود على من مشى على هذا النور ، لتجد ما فيه من إيناس وتطربة وتطمين ورحمة وحب وتندية وظل لأنه من عند ربه الذي رباه والذي يكلؤه ، ويقوم على كل أمره ويتعهده بكل ما فيه منفعته .

والتعبير القرآني هنا من فرط جماله يفجر ينابيع المسرة في القلوب ، ويشعل أحاسيس البهجة في النفوس ، ويخلع على الوجوه وضاءة الحسن ، ورونق السعادة بحيث تبقى من فرط جماله في جمال .

أما الطرف المقابل أما الجزء المسكوت عنه فما حاجتك وحاجة غيرك إليه إذن ؟ فليبق بعيدًا محذوفًا من الكلام ومحذوفًا من الحياة ليبق في وحشته الرهيبة ، في جهله المطبق ، في ظلمته الكثيفة وفي ليله الحالك يعاني من ازدراء النفس له ، بعيدًا عن العين ، بعيدًا عن القلب والخاطر والوجدان ولتنعم أنت هنا بما تراه مع من شرح الله صدره بما يشيعه في وجودك من سحر ، وبما يبعث به في قلبك من نور وبما يشعه في عينيك من ألق وحسن وضياء .

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ (الزمر:٩) واقرأ هذا القول الكريم في نفس السورة سورة الزمر لتقارن بين صورتين صورة العابد المتحنث القائم القانت الذي ملأ الإيمان نفسه الرضية فشغل ليله بالقرآن يتلى ، وبالصلوات تقضى ، وبالدعاء يردد وبالذكر يكون ، وبالعين تدمع وبالقلب يخضع ، وبالفؤاد يضرع ، وبالنفس تتأمل ، وبالوجدان يذوب .

والصورة الأخرى التي أمسك عنا التعبير القرآني فأسقطها ولم يذكرها وتركها لخيالك يستدعيها حتى تتم المقارنة ، ويتميز الطيب من الخبيث فهي صورة هذا الذي تضاءل الإيمان في صدره ، وانكمش في حياته وانزوى في وجوده فلا ترى له أثرًا في دنياه فلا إشراقًا في نفسه ، ولا مودة في قلبه ، ولا تحررًا من شهواته ، ولا خلعًا لموبقاته ، ولا تركًا لمآثمه ، ولا ذكرًا لربه ، ولا قيامًا لصلاته ، ولا دعاء في ليله وإنما يبقى يركض في فجود تعس مظلم ، وفي حياة موحشة تافهة هواها في اللهو والمال والسلطان والعظمة .

وبعد أن أطلت عليك صورة القانت وطالعتها من خلال وجودها في التعبير القرآني ، واستدعت صورتها الماثلة بين يديك إلى خيالك الصورة المتضادة معها المعاكسة لها ، والذي حاولت تجليتها على قدر ما أتيح لي من فهم ترى هل تتريث وتتمهل لتقضي وتفصل إنك لا تجد مجالاً لأناة ، ولا محلاً لتريث وإنما ستسرع وتعجل فالشمس في رائعة النهار لا تحتاج إلى دليل وستنطق

واثقًا لا يمكن أن يتساوى القانت مع ضده لا يمكن أن يكون كمخالفه فأين هذا من ذاك ؟.

أين القانت ومتى ؟ في آناء الليل وهدأته وسكونه وإلى من ؟ إلى ربه يحذر الآخرة ويرجو رحمته ، أين هذا من ذاك الذي يقضي ليله في بؤر الفساد وفي أوكار الشياطين ؟ ترك نفسه على هواها لا يأبه بحلال أو حرام ، ولتقمؤ هذه الشخصية ولنبو النفس عنها ، وكراهيتها لها ، ولبعدها عن كل عين تبصر النور ، وعن كل قلب يهتدي إلى الحق والصواب أبعدت فلم تذكر ، وأهملت فلم تحفظ إبعادًا لها من كل خاطر ، وإسقاطها لها من كل حساب وإهمالا لها حتى لا تنهض ولا تقوم .

ومما تراه من الذكر الحكيم قد حذف فيه المسند قوله تعالى في نفس سورة الزمر .

﴿ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّـٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ (الزمر:٢٤) المحذوف هنا أيضًا هو المسند ، ولكن العلة هناك غير العلة هنا ، العلة هنا هي الإهانة ، والتنقص والازدراء . أما العلة هناك فهي التعظيم الذي بلغ غاية المدى ، والتكريم الذي وصل إلى قمة المنتهى ، والصورة التي تبصرها في التعبير القرآني هنا لا يخطئك ما تشاهد فيها من أهوال ، وما تحاصرها من أخطار ، وما تلتطم بها من مخاوف إنها صورة يسيطر عليها الفزع ، ويملؤها الرعب ، ويطل منها الهول وترى صاحبها فيها وكأنه يكافح الحريق بألسنة اللهب ، فيتسربل للوقاية من النار بالنار ويتدرع للوقاية من سعيرها بالحديد . إنك تشاهد فيها الحيرة والاضطراب ؛ إذ إن بطلها وهو من أهل النار قطعًا تراه من هول ما يغشاه ومن قسوة ما يعانيه قد صار وكأنه مقيد الرجلين واليدين ومضى يدفع النار بوجهه ، ويتقيها به فبدلا من أن يبعدها عنه ويكافحها بيديه ، فذلك ما جرت به العادة وما يصنعه الأسوياء أن يحشدوا كل جوارحهم لدرء الخطر عن وجوههم ، ولكن الصورة

هنا مختلفة إذ تريك الوجه وهو يقاوم النار ، وكأنه قد استحال إلى أداة من الأدوات تكافح .

والتعبير على كل حال يوقفك على هذا المشهد بما فيه من ضعف وعجز وحيرة واضطراب ، لشدة ما يعانيه صاحبه من هول جعله لا يستقر له جنان من الروع ، ولا يسلم له تصرف من الجزع ، كما يوقفك على مدى الإهانة التي لحقت به ، ووسم بها ، ذلك أن الوجه دائمًا مناط التكريم إذ هو رمز للشرف والتقدم والسؤدد والمجد ، فإذا به بالوجه يتحول إلى أداة يتقي بها النار ، لأن صاحبه مهين مضيع حقير مهمل مترد .

والمشهد المذكور ﴿ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾ يدل على المشهد المحذوف كمن ينعم في الجنة ؟ وإنما حذف هنا للإشعار بالفخامة والعظمة والسمو والكبرياء

ومن هذا ما تراه في قوله تعالى في سورة فاطر :

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ (فاطر:٨)

وترى هذا الاستفهام يحثك حثًا إلى أن تبحث عما يكمل به المشهد ، ويتحقق به تمام الصورة ، المشهد المعبر عن بلادة الحس ، وعن فجاجة النفس ، وعن قحة الهوى تراه يطالعك من خلال قوله تعالى :

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ﴾ وانظر إلى هذا الذي يرى السيئ من عمله في صورة حسنة ، بل إن هذا السيئ من الأعمال الذي يراه على درجة عالية من الحسن قد تصور له في صورة فيها زينة وفيها بهجة ، والزينة بريق يخطف الأبصار ويغشي العيون لكنها مجتلبة مصنوعة لا أصل لها . وصاحب هذا العمل لا تنقلب الحقائق في وعيه وفي حسه ولا تتبدل أمام ناظريه فقط فيرى السيئ حسنًا ، بل إنه يراه في منتهى الزينة والحسن دلالة على حمقه وإشارة إلى غبائه وقصور نظره وكمال بلادته ، وفساد طبعه إلى الحد الذي فقد

معه القدرة على التمييز بين الأشياء التي هي في غاية التمايز والتباين والتغاير ، ومن ثَمَّ استحب الغواية ، وآثره العماية ، واشترى الضلالة بالهدى .

ولعل في بناء الفعل [زين] للمجهول ما يشير إلى أن هذا الرجل له أدلاؤه من الغواة المردة ، ومستشاروه من الشياطين المغوين الذين يوهمونه بأن النعيم هو في أكناف إبليس وفي فجور النفس ، وفي النشوة المتصلة وفي بغي الفتنة والرجل تلميذ مخلص ، ورفيق مطيع ، فآثر الهوى ، ومضى في الطريق ولبى وأطاع [1]

هذا ويحذف المسند حين يجيء إجابة عن سؤال مقدر أو محقق ، ومنه ما تراه في قوله تعالى في سورة النور .

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴾ (النور:٣٦) ببناء الفعل ﴿ يُسَبِّحُ ﴾ للمجهول «بضم الياء وفتح الباء» في مقابل قراءة أخرى تبني الفعل للفاعل ﴿ يُسَبِّحُ ﴾ «بضم الياء وكسر الباء» ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ فعلى القراءة التي بنى فيها الفعل للمجهول يكون قوله تعالى ﴿ رِجَالٌ ﴾ فاعلا لفعل محذوف والكلام على تقدير أن سائلا قد توجه بسؤال من يسبح له فيه ؟

فجاء الجواب : يسبح رجال .

ومن هذا القبيل ما تجده في قول الشاعر ضرار بن نهشل يرثى أخاه يزيد

لِيُبْكَ يزيدُ ضارِعٌ لخصومةٍ ومختبطٌ مما تطيحُ الطَّوائحُ

والضارع : الخاضع المستكين من الضراعة ، وهي الخضوع والتذلل ، والجار والمجرور متعلق بضارع أي يبكيه من يذل لأجل خصومه ؛ لأنه كان ملجأ وظهيراً للضعفاء ، والمختبط : الذي يأتيك للمعروف من غير وسيلة

(١) انظر خصائص التراكيب ص ٢١٦ ، ٢١٧ .

وأصله : من الخبط وهو ضرب الشجر ليسقط ورقها للإبل ، والطوائح : جمع مطيحة على غير قياس كلواقح جمع ملقحة وهي القواذف يقال : طوحته الطوائح أي نزلت به المهالك .

الشاعر يبكي أخاه بكاء مرًا ، ويبين أنه كان يدًا تعين في الشدة ، وسندًا قويًا لمن حلت بهم غير الدهر ونزلت بهم كوارثه ونوبه ، فليبكه إذن كل من تذوب قلوبهم من حرارة الظلم ، وكل من ينحنون انحناءة القهر والذل ، وكل من يلتمس ظل الأمان فلا يدركه ، وكل من لا يجد سبيلا إلى القوت وكل من أطاحت بهم الطوائح ، وعصفت بهم النوازل .

والشاهد فيه وقوع الكلام جوابًا لسؤال مقدر في النفس مشتمل على المسند وكأن قول الشاعر : ليبك يزيد

أثار أشواق المستمع إلى أن يسأل ومن يبكيه إذن ؟

فيقال : يبكيه ضارع لخصومة إلخ .

ومن هذا الوادي ما تراه في قول الله تعالى في سورة الإسراء لكن السؤال محقق صريح :

﴿ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ (الإسراء: ٥٠،٥١) فقد حذف الفعل «المسند» حتى يكون في ذكر الفاعل إسراع بذكر المسئول عنه بعد أن فهم الفعل المسئول عنه ، واستقر أمره في النفس ، فهم حين توجهوا بسؤالهم : من يعيدنا ؟ كان الجواب بحذف الفعل لأنه مفهوم من السؤال المباشر الصريح الذي سألوا عنه ﴿ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أي يعيدكم الذي فطركم أول مرة والله أعلم .

* * *

ذكر المسند

الأصل في المسند الذكر وقد يحذف إذا قامت عليه قرينة ، فإذا ذكر فإن من وراء ذلك عللا ودواعي نذكر منها :

يذكر لتعيين كونه اسمًا فيفيد الثبوت والدوام ، أو فعلاً فيفيد التجدد والحدوث ، ولا يمكن حذفه هنا ما دمنا ننشد البلاغة العالية ؛ إذ إن حذفه يفوت هذا الغرض اقرأ قول الله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (النور:٣٥) تجد أن المسند هو كلمة ﴿ نُورُ ﴾ ومن الضروري هنا ذكرها ، إذ لا يمكن أن يقوم غيرها بما تقوم به في تحقيق معنى الثبوت والدوام . فنور الله ثابت دائم لا يزول ، باق لا يحول ولا ينتهي وأنه عام واسع شامل يحيط بالكون كله ، ويغرقه في سناه ، ويعمه من جميع جهاته ، مقدس خالد لا تحده حدود ، أبدي لا نهاية له .

ولذا ترى القول الكريم يؤكد الإجمال القائم في الجملة القرآنية ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ﴾ فيشرح هذا الإجمال في النور بما يقرب من معناه حتى تأنس النفس لفهمه ، حين تراه مبينًا في هذه الصورة الشارحة المقربة : ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (النور:٣٥) وحين تتوقف أمام هذا المثل القرآني وتدير عقلا واعيًا تجده لا يستقيم حمله على ما سجلته كتب اللغة لدى من كتبوا في الأمثال وألفوا فيها ، إذ ليس المثل في القرآن الكريم على هذا النحو جاء مضروبًا لحالة شبيهة بالحالة التي قد ورد فيها ، كما لا يستقيم فهمه بحمله

على أصل المعنى اللغوي ـ الشبيه والنظير ـ حملاً دقيقًا لا يخالفه في قليل أو كثير هذا صورة من ذلك تمامًا بتمام .

ولا يمكن أن يعترض على هذا بأن اللغة لها قواعد وأصول جرى أصحابها عليها حتى يمكنهم التفاهم بها والتعامل على أساسها ، إذا لم يلتزموا بتلك الأصول لما أمكن لبعضهم أن يتفاهم مع بعض وهم أهل لسان واحد .

ذلك أنهم يتفاهمون بما سبق أن اتفقوا عليه وعرفوه من دلالات الألفاظ اللغوية ودلالات تراكيبها ، لأن اللغة وإن كانت كذلك وكانت بنت المجتمع ووليدة ما تم بين أفراده من اتفاق على تناول مفرداتها وتداولها إلا أنها فوق كل هذا تجسيد للأفكار ، وتصوير للوجدان والمشاعر ، ومن هنا لابد من التفاوت بين الناس واختلافهم في استثمار ما يكمن في اللغة من دلالات ذهنية وعاطفية ؛ لأن الكلمة وإن كان لها مدلول ارتضاه أهل اللغة ، واتفقوا عليه ، وقبلوا به إلا أن هذا المدلول ليس قالبًا من حديد قد صبت فيه الكلمة صبًّا ، وأحكم هو عليها إحكامًا بحيث لا تخرج عنه أبدًا ، بل إن الأمر على خلاف ذلك ، إذ إن هذا القالب الذي وضعت الكلمة فيه قد يتسع فيكون فضفاضًا رحبًا مترامياً إلى مدى غير قريب ، وقد يضيق إلى أقصى غاية الضيق بحيث لا يتسع لغير تصوير معنى الكلمة بما تكونت به من حروف والعبرة في ذلك بالجهة التي صدرت عنها الكلمة .

فليس كل متكلم بقادر على أن يعتصر الكلمة اعتصارًا يستخرج به منها أقصى ما تبعث به أو ترمز إليه ، أو تدل عليه ، ذلك أن الكلمة أفكار ووجدانات وعواطف ومشاعر ، وهي بهذا المفهوم يمكن أن يتسع مدلولها ويمكن أن يتجمد ويضيق .

وعلى أساس من هذا نفهم التشبيه الذي معنا ، والذي يبين معنى نور الله ومحاولة تقريبه ورسمه في صورة محكمة متقنة لها وقع جميل في النفس

بحيث يقدم إلى الأذهان ، فلا يستعصي عليها فهمه ، وتصوره بعد أن أدنى من مداركها وصار في مدى قدرتها واستعدادها وغدا ظاهرًا لها جليًّا واضحًا لا غيم يحجبه ، ولا حاجز يصده ، ولا حائل يمنعه فتأنس به ، وتستريح إليه ، ويتمكن منها التمكن الذي لا تمكن بعده أبدًا .

وعلى هذا فلا محل للقول بأن الممثل له هنا وهو نور الله أشد قوة ، وأكثر إنارة ، من نور هذا المصباح مهمًا وصف ضوء هذا المصباح بما يصور قوة إضاءته وصفاء تلك الإضاءة ، لأن القضية كلها تشبيه للجلي الواضح بما يجعله أكثر وضوحًا ، وبما يقرب صورته في الأذهان تقريبًا لا يلتبس بغيره ولا يشتبه بسواه ، ومن ثَمَّ كان تشبيه نور الله بما يعرفه الناس في حياتهم ، وبما يشاهدونه في دورهم ومنازلهم ، مما هو ملازم لهم ، غير غائب عن مداركهم لا يجهلون من حقيقته شيئًا ، ولا ينكرون شدة حاجتهم إليه ، بحيث لا يمكنهم الاستغناء عنه ، وتمضي أحوالهم وأمورهم على النحو الذي كانت تمضي عليه وهو موجود بينهم يضيء لهم المجاهل ، ويحول بينهم وبين الحوالك ، ويبدد دياجير الظلام فلا يخبطون في بيداء مجهل ، ولا يضربون في أطناب ظلمة حالكة .

ولو فهم النور على أنه النور الذي يقذفه الله في قلب عبده المؤمن على حد قوله تعالى :

﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ (الزمر:٢٢) وعلى حد قوله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ (النور:٤٠) فهو نور يملأ كيانه كله ووجوده كله ، إذ يشع من قلبه على كل وجوده ، فيغمر نفسه بالرضى ، ويملأ شعوره بالنعيم ، ويضيء له جوانب حياته كلها وينعكس عليها ، فيعمر قلبه بالحق ، ودنياه باليقين ، ويفتح له بابًا إلى السماء فيرى بنور الله ويبقى هكذا لا يتشوف إلا إلى الأفق البعيد ولا يستشرف إلا إلى السمت العالي جاعلاً الله غايته ، والإسلام دينه ، ومحمدًا عليه السلام قدوته والجهاد في سبيل الله وجهته ، والموت فداء لدينه أسمى أمانيه وغاية أحلامه .

و (النور) إن فهم على هذا المعنى ـ والله أعلى وأعلم بمراده ـ فلا ضرورة لأكثر من نور هذا المصباح يشرق على قلب المؤمن ، فيهتدي بسببه إلى الحق ويصل إلى أقوم سبيل .

« ثم ألا ترى أن في اختيار هذا التشبيه إيحاء بحالة هذا القلب وقد لفه ظلام الشك فهو متردد قلق خائف ، ثم لا يلبث نور اليقين أن يشرق عليه فيجد الراحة والأمن والاستقرار ، فهو كساري الليل يخبط في الظلام على غير هدى ، حتى إذا أوى إلى بيته فوجد هذا المصباح في المشكاة وجد الأمن سبيله إلى قلبه ، واستقرت الطمأنينة في نفسه وشعر بالسرور يغمر فؤاده »[1] .

في تقديري أن تفسير « نور الله » هنا على هذا النحو لا ضرورة تلجئ إليه إذ إن الله قال :

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ وحينما أراد أن يقرب معنى هذا النور وأن يشرحه شرحًا يدنيه من المدارك قال : ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ . . . ﴾ فلا داعي لأن تفهم التمثيل لهذا النور بأنه تمثيل له في قلب المؤمن وكأن المعنى على حد « الله نور السموات والأرض مثل نوره في قلب المؤمن كمشكاة فيها مصباح » إذ لا يوجد ما يجعلنا نفهم في النور هذا الفهم .

وما يمكن أن يثار حول التشبيه في الآية من أن المشبه حينئذ أقوى من المشبه به في وجه الشبه لا وجه له ، لأنه لا يلزم في كل تشبيه أن يكون وجه الشبه أشد قوة ، وأكثر كمالا في المشبه به عنه في المشبه ، هذا عند المحققين من علماء البلاغة .

ذلك أنه إذا كان الغرض من التشبيه والداعي إليه بيان الحال وكشفها وتفسيرها ، فيكفي حينئذ في التشبيه وضوح وجه الشبه في المشبه به دون حاجة إلى زيادته وقوته .

---

(١) من بلاغة القرآن ص ١٩٥ .

وإذا كان الغرض (بيان المقدار) فيكفي التساوي بين الطرفين في الصفة التي هي وجه شبه ليتضح المقدار ويتحقق .

وإذا كان الغرض [بيان الإمكان) فيكفي في بيانه إمكان الصفة في المشبه من غير اعتبار لقوة الصفة أو ضعفها .

وعلماء البلاغة لم يجمعوا على أن الصفة لابد أن تكون أقوى في المشبه به عنها في المشبه إلا إذا كان الغرض (تقرير ثبوت الصفة) ؛ لأن الضعيف لا يصلح أن يكون مؤكدا لما هو أقوى منه . والتشبيه في الآية ليس من هذا القبيل إذا لا يتطلب أكثر من أن تكون الصفة واضحة في المشبه به ، وهذا متوفر ومتحقق على أن التشبيه هنا لمحاولة التقريب والإحالة فيما قد يفرض عليهم إلى ما هو واضح عندهم معروف لديهم ، ولا شك أنهم يطالعون ضوء المشكاة التي فيها المصباح في دورهم وبيوتهم ، فالتشبيه به تشبيه بما هو واقع تحت أيديهم وفي مجال رؤيتهم وحدود بيئتهم .

وهذا طريق ذكي من طرق الإبانة والتفهم والتعليم .

هذه كلمة اقتحمت علينا حديثنا الذي نتحدث فيه فسجلناها هنا قبل أن تتلاشى وتضيع ، وقد قلنا : إن المسند يذكر ليتعين كونه اسمًا ، فيفيد الثبوت والدوام أو ليتعين كونه فعلا فيفيد التجدد والحدوث ، واستشهدنا لإفادة الاسم الثبوت والدوام بقول الله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ إذ لابد من ذكر المسند ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ لتحقيق أن نور الله ثابت لا ينقطع باق لا يفنى مستمر لا يزول ، وأن نور الله قد فسر وشرح بما جاء بعده من قوله تعالى :

﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ ﴾ إلخ ، أما ذكره لكونه جملة فعلية ، فيفيد التجدد والحدوث فهو ما تجده في قول الله تعالى في سورة يونس :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ (يونس:٩) وحين تمضي مع سياق الآية تفهم

إلى أن المسند [يهدي] وذكره في الكلام ضرورة ملحة ؛ لبيان أن هداية الله للجماعة المؤمنة الملتزمة بتعاليمه ، القائمة على حدوده ، المنفذة لتعاليمه ، والمستجيبه لأوامره ونواهيه ، متجددة دومًا ومستمرة ، طالما كانوا مستمرين في إيمانهم وعملهم الصالح وطاعتهم .

فتجدد الهداية لهم مقرون باستمرارهم في إيمانهم واستجابتهم لله ورسوله وطاعتهم ، فإذا تخلوا عن طاعتهم كان الفعل قابلاً لبطلان ما يدل عليه ، ولو كان المسند اسمًا ما أفاد ذلك ، ولو كان محذوفًا لغابت تلك الدلالة ولما فهمت من الكلام ، وإفادة الخبر الفعلي للتجدد والحدوث تراه في قول الأعشى :

لعمري لقد لاحتْ عيونٌ كثيرةٌ إلى ضوء نار في يفاع تَحرَّقُ

تُشَبُّ لِمَقْرُورَيْنِ يَصْطليانها وبَات عَلَى النَّار النَّدى والمحَلَّقُ

ولاحت بمعنى : لمعت ، واليفاع : ما ارتفع من الأرض ، وتشب : توقد ، والمقرور : المصاب بالقُر وهو البرد ، والندى : الكرم ، والمحلق : اسم رجل كريم .

المعنى « على أن هناك موقدًا يتجدد منه الإلهاب والإشعال حالا فحالا وإذ قيل إلى ضوء نار متحرقة كان المعنى أن هناك نارًا قد ثبت لها وفيها هذه الصفة ، وجرى ذلك مجرى أن يقال إلى ضوء نار عظيمة في أنه لا يفيد فعلا يفعل هذا» [1] .

وقد عقد عبد القاهر [2] فضلاً طيبًا تحدث فيه عن مجيء المسند فعلاً أو اسمًا والمعنى المستفاد منه في مجيئه على كل واحد منهما ، ومضى يشرح الفعل على معنى معين ودلالة الاسم على نفس المعنى ، فبين أن الاسم

---

(١) التلخيص في علوم البلاغة ص ١٠٨ .

(٢) دلائل الإعجاز من ص ١٤-١٨ .

موضوعه على أن يثبت به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجدده شيئًا بعد شيء .

وأما الفعل فموضوعه على أنه يقتضي تجدد المعنى المثبت به شيئًا بعد شيء . خذ معنى (كالانطلاق) مثلا ، فإذا عبرت عن هذا المعنى بالاسم فقلت : (منطلق) فإن الدلالة هنا عن الانطلاق تختلف عنها لو أنك عبرت بالفعل فقلت (ينطلق) .

فأنت حين تقول (منطلق) فإنما تعبر عن انطلاق ثابت غير متجدد وحين تقول (ينطلق) فإنك تعبر عن انطلاق يتجدد شيئًا بعد شيء يقول عبد القاهر :

(فإذا قلت : (زيد منطلق) فقد أثبت الانطلاق من غير أن تجعله يتجدد ويحدث منه شيئًا فشيئًا) وساعتئذ يكون المعنى فيه كالمعنى في زيد طويل وعمرو قصير من حيث الدلالة على أن زيدًا طويل وعمرًا قصير من أن يشعر بتجدد الطول أو القصر وحدوثهما ، فأنت بهذا لا تقصد إلى أن تجعل الطول أو القصر يتجدد ويحدث ، بل توجبهما وتثبتهما فقط وتقضي بوجودهما على الإطلاق ، كذلك لا تتعرض في قولك : زيد منطلق لأكثر من إثباته لزيد وقولك : زيد ينطلق أو زيد ها هو ذا ينطلق فقد أثبت بهذا أن الانطلاق يقع منه جزءًا فجزءًا ، فهو يتجدد ويكون شأنه كما لو قلت : زيد يطول هذا إذا كان زيد صبيًا ما يزال يتجدد طوله ويحدث شيئًا فشيئًا ، وإذا ظهر هذا فلكل واحد منهما سياقه الذي يوجبه ويقتضيه بحيث لا يصح وضع أحدهما في مكان الآخر ، وضرب عبد القاهر مثالا تحس من خلاله بالفرق بينهما وفي ذلك في قول الشاعر نضر بن جؤية يمدح بالجود والكرم :

لا يألف الدرهم المضروب صرتنا ... لكن يمر عليها وهو منطلق

فالشاعر يصف قومه بالجود والسخاء ، وأنهم لا يبقون على شيء من الأموال التي تفد إلى صرتهم التي ترد إليها تباعًا ، ولكنها تمضي مسرعة إلى ذوي الأعذار والحاجات يرشد إلى ذلك قوله قبل هذا البيت :

إذا اجتمعت يومًا دراهمنا ظلت إلى طرق الخيرات تستبق

ففي قوله (وهو منطلق) جاء بصيغة الاسم ليثبت لها صفة الانطلاق من غير إشعار لها بالتحدد والحدوث ، وهذا الحسن اللائق بالمعنى والذي يناسب المدح بالسخاء والجود ، ولو قال الشاعر :

« يمر عليها وهو ينطلق» لم يحسن لأنه لا يثبت أن الدرهم لا يتوقف توقفًا ما عند الصرة ينقطع به إسراعه وانطلاقه ، وإنما يفيد أن انطلاقه يتجدد مما يعني أنه يبقى في الصرة زمانًا ، وهو غير مقصود لعدم مناسبته لسياق المديح .

ومضى عبد القاهر في ضرب الأمثلة فساق شاهدًا آخر يبين من خلاله أن لكل من المسند الاسمي ، والمسند الفعلي السياق الذي يقتضيه بحيث لا يصلح أحدهما في مكان الآخر ، يقول : وإذا أردت أن تعتبره بحيث لا يخفى أن أحدهما لا يصلح في موضع صاحبه فانظر إلى قوله تعالى :

﴿ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ﴾ فإن أحدًا لا يشك في امتناع الفعل ها هنا لأن قوله تعالى : ﴿ بَاسِطٌ ﴾ يقتضي ثبوت الصفة وحصولها فالكلب على هيئة ثابتة ، وهي بسط ذراعيه بالوصيد ، أي الباب بعكس (يبسط ذراعيه) لأن الفعل يقتضي مزاولة وتجدد الصفة ،ويكون قوله تعالى:﴿ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ﴾ مفيدًا للثبوت ، كقولك : محمد طويل في كون طويل صفة ثابتة لمحمد ، فإذا قلت : زيد طويل وعمرو قصير لم يصلح يطول ، ويقصر وإنما تقول يطول ويقصر عن شيء ينمو ويزيد كالنبات والشجر والصبي .

ومن إفادة الفعل للتجدد الاستمراري بالقرائن ما تراه في قوله تعالى في سورة ص :

﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ (ص:١٨) فالتسبيح من الجبال متجدد يحدث وقتًا إثر وقت وحالا بعد حال ، ومن ذلك قول طريف العنبري وكان شجاعًا فاتكًا فقتل رجل من بني شيبان ، فقال رجل منهم

أروني طريفًا ، ففعلوا فجعل الرجل كلما مر عليهم طريف أنعم النظر فيه وسأله عن ذلك فهدده فأنشد أبياتًا منها :

أو كلّمَا وردت عكاظ قبيلة بَعَثُوا إليَّ عريفهم يتوسّم

فتوسموني إنني أنا ذلكم شَاكِي سلاحي في الحوادث مُعْلَم

تحتي الأغرّ وفوق جلدي نَثْرةٌ زَغَفٌ ترد السَّيفَ وهُو مُـثَلَّمُ

حَوْلِي أسيِّد والهُجيمُ ومازنٌ وإذا حللتُ فَحَوْل بَيْتِي خَضَّمُ

والشاهد في البيت الأول يقول إن له جناية على كل قبيلة وهو فاتك ماجد مطلوب للثأر ، فإذا ما وردت القبائل إلى عكاظ بعثت كل قبيلة عريفها الباحث عن شئونها ليتعرف الوجوه ، ويتفرسها لتثأر لدمها ففي قوله : (بعثوا إليَّ عريفهم يتوسم) لغرض التجدد والاستمرار إذ المعنى على توسم ، وتأمل يتجدد من العريف هناك حالا بعد حال ، ولو قال بعثوا إليَّ عريفهم متوسمًا لم يفد ذلك حق الإفادة ؛ لأنه يريد أن العريف وهو الباحث عن شئون القبيلة كثير المعاودة ، والمراجعة ، والتوسم ، ومحاولة تصفح الوجوه ، ومعرفة أصحابها وتجديد النظر .

ويجب أن يكون معروفًا أن الفعل كما يدل على التجدد والحدوث يدل أيضًا على تقييد الحدث بأحد الأزمنة الثلاثة مع الاختصار ، لعدم الحاجة إلى قرينة خارجية تدل عليه ؛ إذ إن دلالة الفعل على أحد الأزمنة إنما هي بأصل الوضع فحينما تقول : سافر محمد ، فقد أفدت السفر لمحمد في الزمن الماضي ، ويسافر محمد ، يفيد ثبوت السفر في الحال ، أو الاستقبال من غير حاجة إلى ما يدل على زمن ، بعكس الاسم فإنه لا يدل إلا على الثبوت والدوام ، ولو أفاد التعبير التقييد بأحد الأزمنة فلا بد من ضميمة لفظ أمس أو الآن أو غدًا ، فتقول : محمد مسافر أمس ، أو الآن أو غدًا .

هذا وقد يكون المسند فعلاً فلا يكون جملة كقولك : ينطلق زيد إذ المسند هو الفعل فقط ، وقد يكون المسند جملة كقولك : زيد ينطلق وذلك لتقوية الحكم حينما يكون المقام مقام إنكار أو شك أو مدح أو فخر بما يتطلب تقوية الحكم فحينما تقول : محمد يعطي الجزيل ، فالمبتدأ هنا يستدعي أن يسند إليه شيء على نحو ما تقدم في المسند إليه وقد أسند إليه (الإعطاء) مرتين إحداهما إلى الضمير المستتر في يعطي ، والثانية إسناد جملة : (يعطي الجزيل) إلى محمد وهو مرجع الضمير فهو هو بعينه .

وإذا كان يؤتى بالمسند (فعلاً) لإفادة التجدد والحدوث فإن هذا ما تراه في المسند إذا كان جملة فعلية ، وإذا كان جملة فعلية وإذا كان يؤتى بالمسند (اسمًا) فيفيد الثبوت ، فإن هذا بعينه ما تفيده الجملة الاسمية .

انظر إلى قوله تعالى في سورة الأعراف :

﴿ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴾ (الأعراف:١٩٣) الآية تتحدث عن الوثنيين الذين يعبدون الأصنام ، والقول الكريم قد جاءت فيه الجملة الفعلية في قوله : ﴿ أَدَعَوْتُمُوهُمْ ﴾ لتفيد التجدد والحدوث وجاءت فيه الجملة الاسمية ﴿ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴾ لتفيد الثبوت ، فيكون المعنى سواء عليكم أن تحدثوا دعاءهم وتنشئوه حالا بعد حال ووقتًا إثر وقت ، أو تستمروا على صمتكم وتظلوا ثابتين عليه ، والمراد بالدعاء طلب الهداية من الأصنام إذ كان الوثنيون الذين خوطبوا بهذا الخطاب من شأنهم إن نزلت بهم شدة أو حل بهم مكروه أن يتركوا أصنامهم التي كانوا يدعونها من قبل ويتوجهوا إلى الله سبحانه وتعالى بالدعاء فقيل : سواء عليكم أأحدثتم الدعاء من غير عادة ، أم بقيتم مستمرين على صمتكم ، ولو قيل سواء أدعوتموهم أم صمتم ؛ لأفاد أن صمتم عن دعائهم لم يكن ثابتًا ، وإنما هو صمت حادث وهذا بخلاف الواقع الذي يكذبه .

يقول الزمخشري : [فإن قلت : هلا قيل أم صمتم ، ولم وضعت الجملة الاسمية موضع الفعلية ؟ قلت : لأنهم كانوا إذا حزبهم أمر دعوا الله دون أصنامهم كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ ﴾ فكانت حالهم المستمرة أن يكونوا صامتين عن دعوتهم ، فقيل إن دعوتموهم لم تفترق الحال بين إحداثكم دعاءهم وبين ما أنتم عليه من عادة صمتكم عن دعائهم] (١)

وهذا معنى ما يقوله الخطيب تعليقًا على ما تفيده الجملة الفعلية والاسمية فيها فبعد أن ذكر القول الكريم : ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴾ قال : أي أحدثتم دعاءهم أم استمر صمتكم عنه ، فإن كانت حالهم المستمرة أن يكونوا صامتين عن دعائهم فقيل لم يفتقر الحال بين إحداثكم وما أنتم عليه من عادة صمتكم عن دعائهم .

ومما يفيد التجدد والحدوث في الجملة الفعلية والثبوت والدوام في الجملة الاسمية ما ذكره الخطيب في قول الله تعالى حكاية كقول إبراهيم له : ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴾ (الأنبياء:٥٥) فتعبيرهم بالجملة الفعلية إشارة إلى التجدد الذي أحدث شيئًا لم يكن ، وكأن المعنى أحدث منك مجيء بالحق ولم تكن من قبل كذلك أي لم تحدثه ولم تجئ به ، هذا هو التجدد المفهوم من الجملة ﴿ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ أما الجملة الاسمية ﴿ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴾ فإنما تفيد استمراره على اللعب ، فهو لم يكن في رأيهم من قبل جادًا ، ثم صار لاعبًا ، وإنما هو مستمر على لعبه ثابت عليه غير متحول عنه ، فهي تفيد الثبوت والدوام .

ومثله قوله تعالى في شأن المنافقين : ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ (البقرة:١٤) ووازن بين كلامهم وخطابهم للمؤمنين وخطابهم لإخوانهم من الشياطين ففي خطابهم للمؤمنين

---

(١) الكشاف ١٣٨/٢ .

يأتي كلامهم مرسلا مطلقًا غير مؤكد ولا موثق ﴿ ءَامَنَّا ﴾ هكذا مطلقة ؛ لأنهم لا يشعرون بحرارة الإيمان في قلوبهم ، فإيمانهم ضعيف فجاء تعبيرهم فاترًا غير مؤكد ، لأن نفوسهم لا تساعدهم على غير هذا ؛ لعدم الباعث والمحرك من العقيدة ، ولأنه لا يروج عنهم لو قالوا مؤكدًا لأن حقيقتهم معروفة .

أما خطابهم لإخوانهم فتراه موافقًا لما في نفوسهم ، متلائمًا معها فجاء على هذا القدر من القوة في دواخلهم ، قال سبحانه ﴿ وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ أكدوه على هذا النحو ﴿ إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ لأن هذا تعبير عن صدقهم وحقيقتهم وما هم عليه من رغبة أكيدة ووفور ونشاط فضلا عن رواجه عنهم وتقبله منهم .

فالتعبير بالجملة الفعلية في قولهم ﴿ ءَامَنَّا ﴾ لبيان التجدد وإفادته وأن هذا الإيمان إنما كان بعد أن لم يكن أما في خطابهم لإخوانهم ﴿ إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ بالجملة الاسمية ليفيد ثبوتهم على معتقداتهم السابقة واستمرارهم عليها أما تجده في قول الله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (البقرة:٨) فلم يقل (ولم يؤمنوا) بالجملة الفعلية التي تقتضي التجدد إذ هم ـ لم ـ ينشئوا إيمانًا ، ولم يحدثوه وحتى يطابق قولهم (آمنا) فإنما كان ذلك لإخراج ذواتهم من جنس المؤمنين مبالغة في تكذيبهم [1].

ولذا أطلق قوله [مؤمنين] وأكد نفيه بالباء تأكيدًا لتكذيبهم ومما تراه قد عبر فيه بالفعلية لإفادة التجدد والحدوث وبالاسمية للثبوت والدوام ما تراه في قوله تعالى حكاية عن إبراهيم حينما سلمت عليه الملائكة : ﴿ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ﴾ (هود:٦٩) إذا الأصل (نسلم عليك سلامًا) وتقدير الثاني (سلام عليكم) كأن إبراهيم عليه السلام قصد أن يحييهم بأحسن من تحيتهم عملاً بقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ (النساء:٨٦) .

---

(١) بغية الإيضاح ١/٢٠٧ ، ٢٠٨ .

ويذكر المسند للتعريض بغباوة السامع : كما تقول : محمد نبينا في إجابة من سألك من نبيك ؟ لأنه يسأل عن نبي هو أظهر من أن يتوهم خفاءه أحد ولذا ذكرت المسند (نبينا) مع أنه مفهوم من نص السؤال إشارة إلى غباء السائل.

ومن دواعي ذكر المسند تأكيده وتقريره ، وتثبيته في النفوس ، وترسيخه فيها ، وتعميقه في داخلها حتى يتمكن منها ، ويترسخ فيها ، وذلك هدف من أهداف البلاغة ، ولذا قد تجد الكلام يتداخل بعضه في بعض بمعنى أن بعضًا منه يدل على بعض ويستفاد منه ، ومع ذلك ترى لذكره حسنًا لا يعدله حسن إذ يحاول الإحاطة بجوانب موضوعه إحاطة تدرأ أية شبهة وتزيل أية ريبة ، وتمنع أي شك وذلك ما تراه في قوله تعالى : في سورة الزخرف ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (الزخرف:٩) فالفعل ﴿ خَلَقَ ﴾ لم يكن محلاً للاتفاق ، فقد كان القوم يعبدون الأصنام وهي مخلوقة لا خالقة ، لا تضر ولا تنفع ، فمن السخف أن يتوجهوا إليها بالعبادة وأن يتركوا الله الذي خلق السموات والأرض كما يقرون هم .

لذا كان ذكر المسند ﴿ خَلَقَ ﴾ ضرورة لتقريره وتأكيده ، والدليل على أن الذكر هنا للتوثيق والتأكيد ، والدليل على أن الذكر هنا إنما كان من أجل تحقيق تلك الفائدة التقرير والتوضيح أنك ترى نفس السؤال في موطن آخر من القرآن تردد على لسان السائلين قبل ذلك وجاء في واحد منهما بالحذف وفي الآخر بالذكر إذ تجد هذا في سورة العنكبوت في قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ (العنكبوت:٦١) كما تجد في نفس السورة : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (العنكبوت:٦٣) .

هذا وغرض التقرير والإيضاح بعيد المدى ، واسع الأفق ، وهو في المسند أكثر من غيره من الأغراض الأخرى ؛ إذ يمتاز بتعميق المعاني في النفس ، وترسيخها في الذهن ، والسيطرة بها على الميول ، وبثها في وعي الجماعات على منهاج واضح وعلى أساس صالح ، حتى تغدو في النهاية وقد اقتنع بها العقل ، وأقرها القلب إقراراً ينتهي إلى الإيمان بها والانقياد لها ، والعمل بما فيها .

ومن ثَمَّ كان التوكيد أداة لتوثيق الحجة ، ودرء الشبهة ، وتأثير الفكرة ، واستهواء العاطفة ، غايته الإمتاع والإحاطة بالمعاني ، إحاطة تامة تستقصي كل دقيق وجليل فيها .

لذا كانت مجالات القول التي تحتاج إلى إشباع حاجات النفس التي ترتسم فيها مشاعر الفرد ، وتنعكس فيها ألوان الحياة وتترجم فيها عواطف القلوب اللهيفة وتغمر الشعور بالإحساس الصادق وبالجمال الخالد داعية إلى تَرْداد كلمات أو جمل بعينها لتحقيق ذلك .

ولذا تبدو القيمة الفنية لتوكيد المعنى من خلال تكرار الألفاظ التي تعبر عنه ، وتحمل معناه ما أمكن ذلك ، ولا أحد ينكر أن للتوكيد تأثيره في عقول المستنيرين وتأثيره أكبر في عقول الجماعات وقد استخدمه القرآن كوسيلة من وسائل تثبيت المعنى وتقريره ، وتعميقه في النفس ، وترسيخه حتى يصير عقيدة لا تخالف ، وشريعة لا تنكر فأنت تطالعه في قوله تعالى : ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ (التكاثر:٣،٤) فترى الوعيد يطل على المخالفين فترتعد فرائصهم ، وتهتز نفوسهم وهم يطالعون هذا التهديد المرعب الذي يبث الخوف في أعماقهم ، ويتطلعون إلى مستقبلهم فيرون الأخطار تحدق بهم والظلام يلفهم ، فيراجعون أنفسهم ويرجعون عن مخالفتهم ويكفون عن عنادهم وإصرارهم .

ولذا ترى القرآن يعمد في مواطن منه إلى أن يكرر الجملة الواحدة تأكيدًا لها بنفس ألفاظها عدة مرات ، على نحو ما نراه في سورة الشعراء إذ تراه يكرر قوله تعالى على لسان رسله : ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ (الشعراء:١٠٧،١٠٨) ولكن تكرار نفس العبارة على ألسنة عدد من رسل الله بنفس الألفاظ مع اختلاف الزمان والمكان بداهة يقطع بصدق رسل الله وتثبيت التصديق بهم ، وهو ما تطالعه في سورة الرحمن والقمر ، والتكرار على هذا النحو في هذه المواضع هو الإعجاز وهو واحد من وجوه البلاغة العالية ، التي لم يجر من قبل القرآن بيان ، وله من الروعة والحسن ما يستولي على القلوب بها ، ومن الحلاوة والطلاوة ما لا يمكن أن يوجد في كلام لا من قبله ولا من بعده .

واقرأ قول الله تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ (الشرح:٥،٦) هكذا مكررة معادة مؤكدة موثقة ، ولن يخفى عليك أنك مع التكرير هنا لا تطالع يسرًا واحدًا ، وإنما يطل عليك من خلاله يسران اثنان ، إذ إن النكرة إذا أعيدت نكرة كانت النكرة الثانية غير النكرة الأولى ، أما العسر الذي تراه فليس سوى عسر واحد ، لأن المعرفة إذا كررت كانت الثانية عين الأولى ، وحين تردد مع الحبيب ﷺ حين سمعها قوله : « لن يغلب عسر واحد يسرين » .

ترى أن أبوابًا من الأمل قد تفتحت لك ، وأن فيضًا من رحمة الله يؤنسك ويذهب وحشة نفسك .

هذا بالإضافة إلى أن للتكرار أثرًا في حسن وقعه على السمع بتناسق إيقاعه وعذوبة رنينه وحلاوة نغمه الذي يقطر رقة ، ويفيض رحمة ، ويتدفق حنانًا وله في كل مقام النبر الذي يلائمه والترجيع الذي يتوافق معه ويناسبه .

اقرأ قول الله تعالى في سورة الأعراف ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ۝ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (الأعراف:٩٧-٩٩).

ألا تحس هنا بما يتدفق به النبر من جلال ، وبما يشيعه من جمال ، إنك ترى الإيقاع الواعظ يمضي في طريقه لا يلوي على شيء يبعث الخوف في القلوب ، والرعب في الأفئدة على نحو يجل عن النظير ، حتى تعود النفوس الشاردة إلى ربها ، وحتى تقلع عن غيها وبغيها قبل أن يحل عليها غضب ربها ، وينزل بها سخطه ويدمرها عذابه .

ولست في حاجة إلى أن أنبهك إلى أن لكل خطابٍ النبر الذي يوافقه والإيقاع الذي يتلاءم مع معناه ، كما لست في حاجة إلى أن تعرف أن التكرار كما أنه تكرار للألفاظ هو تكرار للنغم ، وترداد له .

وهو في الشعر تعبير عن انفعال الشاعر وتأثره بموقف معين ، وسيطرة هذا الموقف عليه ، واستبداده به ، وامتلاكه له ، ولذا يلجأ الشاعر وهو في قمة تيقظ مشاعره ، وفي غاية فوران أحاسيسه ، وفي أقصى مدى لتوثب خواطره إلى أن يتوقف وقفة قد تطول أو تقصر أمام جزء من المعنى يبدئ فيه ويعيد ، ويردد ، ويكرر ، ويرسل أنغامه فيه ساحرة هازجة في مواطن الرضى والفرح ، باكية شاجية في مواطن الحزن والألم ، قوية هادرة في مواقف الشدة والغضب ، فكل سياق يتطلب الدندنة بلون معين من النغم ، بحيث يجمل فيه ، ولا يجمل في غيره .

والشاعر حينما يتردد في أعماقه معنى من المعاني ، ويحس به إحساسًا قويًا ، ويشعر به شعورًا جائشًا ، يلجأ إلى الترداد والتكرار كوسيلة للإبانة عما في صدره وتقرير له عند غيره ممن يسمع إنشاده فهو يريد أن ينقله إليه على نحو ما هو عنده ، وكأنه يريد من هذا الغير أن يحس به الإحساس القوي الذي يحسه ، ويقوى لديه ويتوثق على نحو ما هو موثق لديه ، وهذا كثير في كلام العرب قال مهلهل بن ربيعه في رنة وجيعة ونبرة ثاكلة حزينة يرثي أخاه كليبًا :

على أن ليس عدلاً من كليب إذا طرد اليتيم عن الجزور

على أن لـيس عـدلاً مـن كليـب إذا ماضـيم جـيران الجـير[1]

على أن لـيس عـدلاً مـن كليـب إذا رجف العضـاة مـن الـدبور[2]

وقد تكرر قوله ـ على أن ليس عدلاً من كليب ـ غير مرة قيل ثمانية ، وقيل عشرون ، لأن الشاعر سكب إحساسه كله فيه ، فهو عصارة من ذوب نفسه ، وفيض مشاعره ، وكأنما يحاول أن يرسم صورته على النحو التي هي موجودة عليه في أطواء فؤاده ، وفي قرارة أعماقه ، وهي صورة ترتسم فيها كل الخلال النبيلة والصفات الماجدة الحميدة .

فأحاسيس الشاعر بالثكل الدامي بسبب مصرع أخيه الذي أثار في نفسه دفائن الحزن ، وأذاب لفائف القلب تجعله يرجع هذا الأنين في محاولة منه لنقل صورته على نحو ما يجدها في أعماقه ، وكأنه حينما يكرر المقطع الذي يصور التياعه بجانب صفة من الصفات الفاضلة التي تتوفر لكليب يشعر بأنه لم يأت على كل ما هو لديه مما يعرفه من مناقب البطولة والبسالة وأقدس الصفات لدى أخيه ، فيعود ويكرر على هذا النحو المؤثر الحزين الذي يستمطر الدمع من العيون والدم من القلوب .

وانظر إلى هذه النفثة الملتاعة الحزينة بما فيها من وله لا يبلى ، وحزن دفين لا يخلق ، من رثاء ابنة النعمان بن بشير لزوجها مالك وكانت قد سألت عنه أصحابه الذين كانوا معه ، وشهدوا موته فكان حديثهم إليها عنه حديثًا فاجعًا أرمض أحشاءها ، وأذاب قلبها ، فراحت تبكي وتنشج :

وحـدثني أصـحابه أن مالكًـا أقـام ونـادى صـحبه برحيـل

---

(١) اسم ليس هنا ضمير يعود على جساس بن مرة ، وهو الذي قتل كليبًا غدرًا ، أي أنه ليس معادلا لكليب في هذه الأمور التي ذكرها .

(٢) رجف : تحرك حركة قوية من شدة البرد ، والعضاة : شجر له شوك ويريد بهذا أن يكنى عن الجدب الذي يقع وقت البرد حين يجيء الشتاء وترجف أشجار العضاة من البرد .

وحـــدثني أصـــحابه أن مالكًـــا ضروب بنصل السيف غـير نكـول

وحـــدثني أصـــحابه أن مالكًـــا صروم كماضـي الشـفرتين صـقيل

وأعد قراءة قولها المكرر المعاد مرة ثانية : وحدثني أصحابه أن مالكًا لتجد أن دموعها المنهمرة منذ الفاجعة لم ترقأ ، وأن جرحها الغائر في سويداء القلب لم يندمل ، وأن صوتها المذبوح المكروب ما يزال يولول ، وأن نفسها الوالهة أمام المشاعر الضاغطة عليها من مآثر الفقيد ومناقبه لا تجد حيلة إلا أن تفزع إلى التكرار تصب فيه أساها ، وتفرغ فيه أحزانها ، وتسمع الدنيا كلها بإعوالها وشجوها بعد أن غدا نعيمها شقاء ، وروضها الغرد صامتًا ، وجمال حياتها دمامة وقبحًا .

إنها هنا وتحت سيطرة هذه المعاني عليها ، واشتدادها على حناياها وضلوعها لا تستطيع الفكاك من أحاسيسها ، ولا إخفات أصدائها ، وإذن فلا مناص من التجاوب معها بترديدها على نحو ما تحس بها وما هي عليه عندها عنفًا وقوة وضرامًا ، حتى تتأكد هذه المعاني وتتضح وتتقرر في أذهان الناس جميعًا ، وفي قلوبهم وضمائرهم .

وانظر إلى هذا الشاعر المكروب الحسين بن مطير يعاني غصص الفقد ويتجرع مرارة الحزن لفقد معن بن أوس بعد أن خلف اختطاف الموت له ، وحشة في النفس ، وظلمة في العين وحسرة في الفؤاد ، فغدا يبكي وينوح وراح ينادي القبر في شجو وألم وذهول :

فيـــاقبر معـــن أنـــت أول حفـــرة من الأرض خُطَّت للسماحة موضعًا

وياقبر معن كيف واريـــت جـــوده وقد كان منه البر والبحـــر مترعـــا

لقد أضحى فقد معن بالنسبة للشاعر مبعث الأسى والشجن ، ومثار اللوعة والحزن وقد كانت سجاياه من السماحة ، والمروءة ، والبسالة والكرم التي تزحم الأفق ، وتسد مطالع الضوء تملأ وجدان الشاعر ونفسه فنادى الجدث

الذي آوى الجسد الضارع ، وضم الجثمان المسجي مستعظمًا عليه ومستكثرًا بعد أن صار أول محل يخط للسماحة يواري جوده ، وقد كان منه البر والبحر مترعًا ، إنه في استغراقه وذهوله أمام سجايا الفقيد ، وسماحته ونبله وسداد رأيه لم يملك إلا أن يكرر نداءه الملتاع للقبر الذي صار موضعًا لهذا كرر تقريرًا وتثبيتًا وتوضيحًا .

وانظر إلى عنترة وهو يتيه بشجاعته وينظر حوله فلا يجد غيره الجسور المقدام رجل المهمات الصعبة ، والأمور الجسام فيتغنى ببسالته ، ويذيعها ويعلنها على الدنيا كلها في زهو وكبرياء .

فهو وحده لا غيره الذي يسعى قومه إليه طالبين النجدة والإنقاذ حين تتزاحم الأخطار ، وتتدافع الأهوال ، وتضطرب الأحوال ، ويستحر النضال وتشتجر الرماح وتستطيل وتبرق السيوف وتلمع وتضيء ، وساعتها يلجئون إلى البطل الذي يرفع العلم ، والفارس الذي لا تسقط من يده الراية أبدًا ، ويكرر إحساسه بهذه المعاني تكريرًا يستقر في أعماق قارئه استقرارًا متمكنًا واضحًا على نحو ما هو عند الشاعر :

يدعون عنتر والرماح كأنها ... أشطانُ بئرٍ في لبان الأدهم

يدعون عنتر والسيوف كأنها ... لمع البوارق في سحاب مظلم

وانظر إلى امرئ القيس الذي وقف على الديار ، وبكى واستبكى الصحاب ، ووصف لك النياق وطلع بك على مضارب القباب كيف يقوي المعنى في نفسه ، وكيف يعتلج في أعماقه ، وكيف يشتد في صدره ، فلا يملك إلا أن يتنفس به ويفيض ليقوى عند غيره كما هو عنده فيقول فيما يقول :

ألا عِمْ صَباحًا أيها الطللُ البالي ... وهل يَعِمَنْ من كان في العُصُر الخالي

وهل يعِمَن إلا سعيدٌ مخلّدٌ ... قليلُ الهمومِ ما يبيت بأوجَال

وهل يعمن من كان آخر عهده ... ثلاثين شهرًا في ثلاثة أحوال

ديارٌ لسلمى عافياتٌ بذي الخال ... ألح عليها كلُّ أسحمَ هطّالِ

وتحسبُ سلمى لا تزال ترى طَلاً ... من الوحش أو بيضًا بميثاء محلال

وتحسب سلمي لا تزال كعهدنا ... بوادي الخُزامى أو على رأس أوعالِ

تراه يكرر أجزاء معينة وهل يعمن ؟ وتحسب سلمى تأكيدًا لها وتقريراً وتوضيحًا .

فالطلل الذي ألقى عليه تحيته على عادة الجاهليين هو طلل بال خرب فكيف ينعم ، ويحس بالهناءة ، ورغد العيش ، ومتعة الحياة وقد عمه البلى والفناء ، وشمله القفر والخراب ، ولم يعد فيه من أثر لحياة وقد ملأته الوحشة فلم يعد رخى النسيم ، ولا بهيج الجو ، ولا صادح العش بعد أن تركه أصحابه الذين كان آهلا بهم ، آنسًا بوجودهم يملئونه ضجيجًا وحركة وحياة .

ومن ثَمَّ استرجع الشاعر ، واستبعد أن ينعم بعد أن فارقه الأحباب ، وسفا عليه الكدر وعشش فيه البوم ، وسكنه الخراب .

ولذا كان تكريره لقوله (وهل يعمن) إحساسًا بهذه المعاني كلها ، وتأكيدًا لاستبعاد أن يهنأ ، وأن ينعم بعد أن تغيرت الأحوال ، وغادره الأحباب .

وفي تكريره لقوله : وتحسب سلمى تكرير لوهمه الضائع ، وأمله الذاهب ، وحلمه الذي غاب ، وحسرته المردية . وإلا فأين هي سلمى ؟ الذي يحسب أنها ما تزال على العهد بوادي الخزامى خفاقة القلب ، جياشة الإحساس ، نفّاحة الزهر متصلة النشوة ، خلابة الحديث ، فاتنة الجسد ، ساحرة الملامح ، أين هو منها الآن وأين هي ؟

كيف ترى طلا من الوحش أو بيضاء بميثاء محلال ؟ ذلك وهم شاعر يرى أن نعيم الدنيا في المرأة ، وزينتها في اللذة ، وبهجتها في المنى ، وهو ينظر حوله فلا يرى إلا مظاهر الخراب تتمشى في كل شيء .

ومشاهد البلى تعم المكان كله ، والأسحم الهطال يلح على آثار الديار ويغرقها في بحار من الصيّب الهطّال .

الشاعر الواهم هنا يعيش مع ماضٍ صار تاريخًا ومع آمال صارت ذكريات .

وانظر إلى ليلى الأخيلية في حديثها الذي تشيد فيه بالحجاج وتبين من خلاله أنه الدواء الذي يعالج الأسقام ، وأنه العلاج الذي يقضي على الأوجاع وأنه النسحة التي تبرئ سقام الأرض المريضة ، وأنه هو الذي يعيد إليها العافية ويشفيها بقناعة من أدوائها التي تهد كيانها ، وتسحق حياتها وقد ركزت على كلمات معينة قصدًا إلى التأكيد على معانيها ، وإذاعتها ، وإشاعتها وتوثيقها في كل قلب ، وتقريرها في كل نفس ، وتثبيتها في كل فؤاد :

إذا هبط الحَجَّاجُ أرضًا مريضةً ... تتبع أقصى دائها فشفاها

شفاها من الداء العضال الذي بها ... غلام إذا هزّ القناة سقاها

سقاها فرواها بشرب سِجَالُه ... دماءَ رجال حيث مال حشاها

إذا سمع الحَجّاج رِزَّ كتيبة ... أعد لها قبل النزول قِراها[1]

أعد لها مسمومة فارسيَّة ... بأيدي رجال يحلِبُون صَرَاها

وليلى الأخيلية التي امتلأ وجدانها بمعاني العظمة التي تحققت في الحجاج على نحو يجل عن النظير فبلغت الغاية ، ووصلت إلى النهاية ، تراها تتوقف أمام كلمات بعينها تبدئ فيها ، وتعيد .

وبالتأمل الفاحص ترى هذه الكلمات هي الخيوط القوية التي نسج منها الثناء والمديح وكل ما سواها كأنه تابع لها ، ومؤسس عليها ، ودائر في فلكها ، فإذا كانت ليلى قد ألحت بالتكرير على كلمات مثل شفاها وسقاها ، وأعدَّ لها ، فما كان ذلك منها إلا لأنَّها الركائز التي بُنِي عليها المديح ، والعُمد التي انتصب عليها وأقيم .

---

(١) رِز : بمعنى صوت أو ما ينبئ عن تحرك .

وانظر إلى قولها : (شفاها) وكيف كررتها ، إذ إن معناها التي تعبر عنه هنا يلح على الشاعر ، فالحجاج استطاع أن يستأصل شأفة الخصوم من أعداء بني أمية حتى تسلم الأرض التي ينزل بها وتصح بعد أن يكون قد استل منها السوس الذي ينخر في عظمها ، والحقد الدفين الأسود الذي ينغُر في صدرها ، وسويدائها ، ويكيد في الظلام لها ، وفي قولها : سقاها وقد كررتها لما لها من معنى تريد أن تشيعه وتذيعه وتعلنه في وثاقة وتأكيد .

إذ إن هذا الغلام الذي قضى على غدر الأعداء وسحق خصومه قد روَّى رماحه من دمائهم ، وسقاهم من مناهلهم فهي إشارة صريحة منها إلى فتكه بخصومه ، ومحقهم وإعمال القناة في نحورهم ومقاتلهم ، أما قولها ـ أعد لها ـ مع التكرير ، فذلك لأنها تريد أن تصِفَهُ بالحزم ، والفطنة ، والكياسة ، وأنه يعد لكل شيء عدته حتى تأتي النتيجة كما يهواها سريعة حاسمة فتكون الطعنة مدْمِية ، والرمية مصْمِية والقضاء عاجلا ، فهو يواجه الأخطار بقلب جسور ، وبالسلاح الذي يجب أن تواجه به وذلك بالإعداد الجيد ، واليقظة الكاملة ، كررت هذا لأن ما عداه كالتابع له .

وقد يلح على الشاعر إحساس معين ، ويستبد به هذا الإحساس ، ويتعاظم معه الشعور به ، فلا يملك أن يفلت من قيده الذي يشتد عليه فترى كلمات معينة تجري على لسانه ، تكون صورة تظهر من نسيجها ألوان نفسه ، لأنها تصف ما يحسه فهو من خلال استخدامها كأدوات للتعبير إنما ينقل عن شعوره ، ولا يولِّد من عقله لذا تراها مشرقة في معانيها ، بينة سافرة لانتزاعها من الخوالج الواضحة ، ومن دفقات الأحاسيس الصادقة لا زيف فيها ، ولا خداع ، ولا تلفيق ، ولا صنعة ، ولا تزوير فما تشاهده في كلماتها إنما هو من فيض الشعور ، ومن قوة البديهة ، ومن عمق الإحساس إذ يخيل إليه أنه إنما ينظمها من عصارة وجدانه ، ومن حبات قلبه ، ومن دمع عينه .

وتجد هذا في أبيات للشاعر عوف بن مُحلِّم الخزاعي قالها وهو في الطريق من بغداد إلى خراسان مع عبد الله بن طاهر بن الحسين بعد أن ظل مع أبيه ثلاثين عامًا لا يرى أهله ، وحنينه إليهم حنين طاغ مستبد ، وبينما هو مع عبد الله عند الري إذ سمعا صوت عندليب يغرد ، فأعجب ذلك عبد الله والتفت إلى عوف قال : يا ابن محلم هل سمعت بأشجى من هذا ؟ فقال : لا والله قاتل الله أبا كبير حيث يقول :

ألا يا حمام الأيك إلفك حاضر ... وغصنك ميّاد ففيم تنوح

أفق لا تَنُحِ من غير بين فإنني ... بكيت زمانًا والفؤادُ صَحِيح

ولوعا فَشَطّت غربةً دارُ زينب ... فها أنا أبكي والفؤاد قريح

فقال عوف : أحسن أبو كبير ، فألح عليه عبد الله وقال له : أقسمت عليك إلا أجزت قوله ، فقال له ـ كما يذكر صاحب معاهد التنصيص ـ : قد كبر سني وفني ذهني ، وأنكرت كل ما كنت أعرفه ، فقال عبد الله : بحق طاهر إلا فعلت ، فابتدر عوف هذه الأبيات :

أفَي كُل عَام غُربَةٌ ونُزُوحُ ... أما للنوى من ونِيَة فتريحُ

لقد طلّح البيْن المُشِتُّ رَكَائِبِي ... فَهَل أرَيَّن البَيْن وهو طليح ؟

وأرّقني بالريِّ نَوْح حَمَامَة ... فنحتُ وذو اللُّب الغريبُ ينوح

على أنها ناحت ولم تُذْرِ دمعةً ... ونحت وأسرابُ الدموع سفُوح

ونَاحت وفرخاها بحيث تراهما ... ومن دون أفْراخِي مَهَامِه فِيح

ألا يا حَمَامَ الأيك إلفك حاضر ... وغصنك ميَّاد ففيم تنوح ؟

فاستعبر عبد الله ورق له(١) .

---

(١) معاهد التنصيص ٣٧٦/١ ، وطبقات الشعراء لابن المعتز ، صـ ١٨٧ تحقيق عبد الستار أحمد فراج .

أرأيت إلى الشاعر التي ترجمت كلماته عن أعمق ما يتردد في نفسه ، وعبرت عن أشف ما يترقرق في حناياه ؟

أرأيت إلى الشاعر الذي يكابد الشوق الملح والذي أثار أشجانه نوحُ الحمامة ، فمضى يُعْوِلُ هو الآخر وينوح ومزج شكواه بشكواها ، وبكاءه ببكائها في شدو شاج وصوت متهدج حزين ؟

أرأيت إلى الشاعر الذي اندفع بقوة الحنين الطاغي يضرب على أوتار القلوب بأنينه المرجّع ، وبقلبه المنفطر المشقوق حتى أذكى في كل صدر لوعة ، وأقام في كل نفس مناحة ، وأفاض العيون بالدمع رحمة وحنانًا وعطفًا وإشفاقًا ؟

أرأيت إلى الشاعر الأريب كيف انتقى كلمات بعينها تتدسَّسُ في أطواء القلب ، وتضطرم في حنايا الضلوع حتى تبلغ من كل ذلك مكامن الإحساس فتثير في النفس أوجاعها ، وتحرك فيها أشجانها ، ثم وظّف هذه الألفاظ في السفارة بينه وبين المتلقي عنه ، فكانت بما فيها من صحة معنى ، ورقة لفظ ، وتناسب مع حال الخطاب السفير الأمين الفطن إذ وصفت ما يحسه ، ومثلت شجونه فأبدعت في التمثيل ، وصورت التياعه وحنينه فكانت آية في دقة التصوير .

فالكلمات التي تكررت على لسان الشاعر تحكي لك ولهه ، واغترابه وحنينه ، وشوقه ، ولهفته وبثه وأساه مما يحرك عاطفتك ، ويرقّ قلبك فلا تملك إلا أن تحن لحنينه ، وتتألم لحزنه وتبكي لدموعه .

انظر إليه وهو يخبرك إلى أي مدى صنعه البين المشتّ بركائبه لقد أنضاها ، وأضعفها ، وأهزلها فصارت هي الأخرى في حالة يرثى لها ، وانظر إلى وصف (البين) بأنه بين (مشت) فهو ليس بعادًا ونأيًا ولكنه البعاد الذي تفرقت به السبل ، الشتات الذي توزع في كل اتجاه مما تشعر معه بتمزق قلب الشاعر ، وانقسامه ،

وعدم تجمعه لذا وأمام هذه الأحاسيس المثقلة بالهموم لا تعجب حينما ترى الشاعر الذي لا يملك شيئًا يدفع به هذا البين ، ويرد عنه كيده ، ويمنع عدوانه وأذاه إلا أن يشرق في نفسه الأمل ، فيتمنى من أعماقه أن يرى البين الذي طلّح ركائبه وأنضاها هزيلا شاحبًا ضعيفًا ، قد لصق خده بالأرض وهمدت الحياة فيه حتى يعجز فلا يقدر على أن يصنع الشتات من جديد .

وهكذا تتبدل صور الأشياء في خيال الشاعر ، فيخلع عليها ألوانًا من عصارة نفسه ، فإذا بها في صورة أخرى ، وإذا بك تراها شيئًا آخر على خلاف ما كانت عليه ، وإذا بالبين نفسه تراه جانشًا نابضا متحركًا تدب الحياة في أوصاله ، وتتدفق حارة نابضة في شرايينه ويكون من شأنه أن يقوى ويشتد ، وأن يضعف ويشحب ويهزل ويتضاءل ، بل إن هذه الأمنية لتكبر في عين الخيال ، وهي عين سحرية نافذة الرؤيا إلى الحد التي تصير عنده أمنية غالية عزيزة حين يضفي من خصائص الصياغة ما يقوي أمنيته ويزيدها وثاقة ورغبة (هل أرينَّ البين وهو طليح) تأمل نون التوكيد هنا وما تفيده من رجائه الشديد وأمنيته التي يتمنى أن تحقق له ، فهو حريص عليها ، معلق رجاءه بها .

وتأمل الإخبار بالاسمية في قوله (وهو طليح) وما يفيده من الاستمرار والثبوت حتى يعجز هذا البين فلا يقضي بالشتات والتفرق أبدًا ويبقى ويستمر ضعيفًا مقهورًا .

هل تريد شيئًا آخر ، إنك لو فهمت من هذا الكلام عجز الشاعر وضعفه وقلة حيلته بحيث لا يملك إلا أن يتمنى ويدعو لما خالفت وحي الشعر ، ولما تجاوزت رمزه ولا صوته ، هل لك إلى أن تفهم من إشارات الصياغة إلى أي مدى يحن الشاعر إلى أهله حنينًا ما بعده حنين؟ وإلى أي مدى هو ضائق بالاغتراب الذي يحول بينه وبين فلذات كبده ومهوى فؤاده ، ومحل أسرته وبيته؟

ثم انظر إلى الشاعر مرة أخرى وكيف أرقه نوح الحمامة حين حرك مواجعه ، وأشعل النار في صدره ، وأثار لهفة نفسه فإذا به يردد على قيثارته الحزينة ألحانها ، ويتجاوب معها فيلتقي أساه بأساها ، ووجده بوجدها ويبكي كما تبكي ، وينوح كما تنوح إذْ لا يملك الغريب ذو اللب إلا أن يولول وتفيض عيناه بالدموع .

ثم انظر إلى أي مدى يخاطب فيك الشاعر أحاسيسك ، ويلجُ إلى أطواء قلبك وأعماق وعيك حين يغزو المنطقة الحارة في صدرك ويدعك تبكي معه في رهافة حس ، ورقة شعور ؛ لأنك لا تملك إلا أن تسلمه زمام عاطفتك الذي سيطر عليها ، وتمكن منها ، مع أنه يباكيك حين تراه يعقد موازنة بين نوْحه وبين نوح الحمامة ، وبين بكائه وبين بكائها ، ثم يفصل في هذه الموازنة ويقضي حين يُبيِّن في النهاية أنها أسعد منه حظًّا ، وأهنأ حالا ، فبين أولا أنها ناحت وأنه ردّ على نواحها بنواح ، وقابل بكاءها ببكاء إلا أن نواحها يختلف عن نواحه ، وشجاها لا يصل إلى شجاه .

إنها ناحت ولكن دمعة واحدة لم تسقط من عينها ، ولم تَجُدْ بها مآقيها ، أما هو فكان نواحه أنهارًا من الدموع تسفحها عيناه في فيضان متلاحق متتابع (وأسراب الدموع سفوح) .

وانظر إلى هذا التروح بين قوله : (ناحت) و(نحت) وما ألحق بنواحها ونواحه ، فما أشجاه من غُصّة الحزن ، ومن حرقة الغُرْبة ليس كما أشجاها ، وما ضرَّم فؤاده الملتهب ليس كما ضَرَّمها .

إن آلامه تجيش في كلماته ، وعواطفه تتفجر على لسانه وهو يعلن عنها بالدموع والعويل والنواح ، إذ هو غير قادر على أن يفلت من ربقة أحاسيسه التي تضغط عليه في عنف وبلا رحمة ، فدموعه إنما كانت تجاوبًا مع هذه المشاعر الضاغطة ورغبة القلب المشوق الحزين .

ثم انظر إلى ما يزيد النار اضطرامًا والقلب عطفًا وإشفاقًا ممّا يُوثّق به كلامه من أن حال الحمامة النائحة أسعد وأن الفرق بين نوحها ونوحه يقاس بآلاف الفراسخ والأميال .

فهي تنوح لكنها في نهاية الإعوال ستذهب إلى فرخيها فتذهب عنها أحزانها ويتبخر وجْدها وأساها ، إذ معهما سيغمر الرضى نفسها ، وسيملأ النعيم شعورها ، وتنعم بدفء الحب إلى جوارهما وتمرح وتلعب وتنسى ، أما هو فمن دون أفراخه موامي ومهامه فيح وقفار ، فكيف تحل في قلبه السعادة أو تغمره الهناءة وهو يرى وجوده يغوص في طوايا العدم شيئًا فشيئًا ولا يستطيع أن ينعم بأحبابه من أهله حتى يفيض عليهم المحبة وينقع القلب الصادي برؤيتهم ، واللبث إلى جوارهم ؟

وانظر إلى بيته الأخير الذي يجعلك تأسى حتى تستعْبِر ويحرك في أعماقك ألوان العواطف والمشاعر ، وأنت ترى الرجل يبث فيه وجده ويصب بثه وأساه في حزن غالب ترى فيه دمعة الثاكل وأنة القلب المجروح حتى وهو ينادي حمام الأيك في شجى ضارع ، ويعتب عليه في نواحه عتابًا شفيفًا إذْ لِم النواح؟ ولم العويل؟ فإلفه حاضر ، وأنيسه قائم وغصنه الميّاد سيأوي إليه في أعالي الشجر يمرح في الضوء ، وينعم بالدفء ويسعد بالطلاقة ، ويهتف بالأهازيج ، ويغني للحرية .

ألا يا حمام الأيك إلفك حاضر وغصنك ميّاد ففيم تنوح؟

ويطرح الشاعر استفهاما يبحث عن جواب ؛ إذ لا محل لنوح الحمام ولا داعي لبكائه .

ولا شك أن الشاعر قد استطاع أن ينقل إليك عالمه الذي يحسه ، ويعيش فيه ، وجاءت لغته معبرة تعبيرًا حيًا وأمينًا بدون زيف أو تلفيق عن عاطفته الصادقة وأحاسيسه المتوثبة الطاغية ، وتلاقت مشاعره الصارخة تلاقيا سعيدًا ومثيرًا وفريدًا مع كلماته الذي وظفها في براعة وذكاء ، وأراك من خلالها في

نصاحة ووضوح عواطف الحنان والشوق ، واللهفة إلى الأهل والولد والإحساس بمرارة الغربة ، وبغصص النوى ، والنواح والعويل وتجاوب أحاسيسه مع أحاسيس الحمامة التي كان لها صدى عميق وراسخ في كيانه كله ؛ إذ كانت بمثابة المثير القوي الذي فجَّر في نفسه دقائق المواجع فجاءت كلماته لتحمل انفعالاته ، ولتخلعها على العالم الخارجي فيتلقاها المتلقي وقد ملكت عليه لبه واستبدت به ، وصرفته على هواها فجعلته يتعاطف مع موقف الشاعر ، ويحزن لحزنه ، ويرثى لغربته ، ويبكي من أجله .

على أن الشاعر كان بارعًا حين استطاع أن يؤثر في مشاعر قرائه بانتقاء وتخير كلماته التي تناسب موضوعه ، وباستثماره لكلمة (النوح) واستلابه أكبر قدر يمكن أن يأخذه من مادتها بتصرفه في الاشتقاق منها ثم توظيفه في غرضه توظيفًا جيدًا وذكرًا يضرب به على مجامع الإحساس ، ومكامن الشعور في لباقة وفطنة ، وأن ينقل إلى الغير كل ما يحس به في صورة قوية مؤكدة حتى يوصله إليه مؤكدًا فيتلقاه على نحو ما هو عليه عنده وقد اطمأنت إليه نفسه ، وتوثق لديها وسلم به وارتضاه وقبله .

هذا وإذا كان التقرير يفيد التوضيح والتثبيت على نحو ما رأيت ، فإن التأكيد بكل الوسائل يحقق هذا المعنى ولذا كان على رأس العوامل لبث الأفكار وإشاعتها ، وجذب الأنصار والمؤيدين لها ، وإقرارهم بها إقرار ينتهي إلى أن تصير عقيدة يؤمنون بها ، ويعملون في سبيلها ، ويستعذبون التضحية من أجلها ، ولذا كان لابد من التأكيد إذ لا يكفي لَبثُّ هذه الأفكار وإذاعتها ، مجرد الإفهام لها ، والتعبير عنها بما لا يعمِّقها ، ويجليها ويمكنها في الصدور ، ويثبتها في الأفئدة والقلوب .

ورحم الله أبا هلال الذي بين أن المعاني التي تأتي على أقلام الكتاب والأدباء تحتاج إلى زيادة بيان ، وفصل تأكيد فقال بعد أن عدد أنواعًا من الإطناب الذي أثبتناه هنا : (ولابد للكاتب في أكثر أنواع مكاتباته من شعبة من

الإطناب يستعملها إذا أراد المزاوجة بين الفصلين ، ولا يعاب ذلك منه وذلك مثل أن يكتب : عظمتْ نعمنا عليه وتظاهر إحساسنا لديه ... فيكون الفصل الأخير داخلا في معناه في الفصل الأول ، لا يعيبه أحد) .

ولذا استحسن من باسل خادم مروان حين اشتد الخناق حول عنق سيده وأحيط به قوله : (من أغفل القليل حتى يكثر ، والصغير حتى يكبر ، والخفي حتى يظهر ، أصابه مثل هذا) وقال في حقه : وهذا كلام في غاية الحسن وإن كان معنى الفصلين الأخيرين داخل في الفصل الأول .

وواضح أن أبا هلال يبين أن المعاني متداخلة إذ معنى قوله : والصغير حتى يكبر داخل في معنى قوله : من أغفل القليل حتى يكثر ، كما أن معنى قوله : والخفي حتى يظهر ، داخل أيضًا في قوله : من أغفل القليل حتى يكثر .

وإنما أعجب بهذا أبو هلال واستحسنه ؛ لما في هذا الكلام من تقرير للمعاني ، وتوضيحها في وقت يفرض سياق الخطاب هذا ، ذلك أن معالجة الأمور تقتضي حزمًا وفهمًا وكياسة ، وإذا كان معظم النار من مستصْغر الشرر فإن على العاقل أن لا يمكن الشرر من الهشيم فضلا عن أن يناله ويطوله ويصل إليه ، وكان يكفي في أداء المعنى من أغفل القليل حتى يكثر أصابه مثل هذا ولكنه قرر هذا المعنى وأكده حتى يتوثق لدى النفس ، ويتعمق في القلب فلا تترك الأخطار تتلاحق وتتابع ثم يبدأ في علاجها بعد أن تكون قد وصلت إلى الحد الذي تستعصي معه على العلاج ؛ لذا أعاد هذا المعنى ليشير إلى ذلك . ويقول أبو هلال : ومما هو أجل من هذا كله قول الله عز وجل :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ﴾ (النحل:٩٠) فالإحسان داخل في العدل ، وإيتاء القربى داخل في الإحسان والفحشاء داخل في المنكر ، والبغي داخل في الفحش) .

فهذا الكلام يؤكد بعضه بعضًا ويوثقه حتى تترسخ معانيه في النفس ، فتهفو إلى عمل الخير والبعد عن كل سوء وشر ، وينبثق منها هذا العمل الطيب القائم على الإيمان الثابت .

وهذا الكلام الذي تطالعه في القول الكريم ترى معانيه تتداخل في صورة قد يغني فيها التنصيص على البعض ويكون قد أدى المعنى كله ، ولكن كان هذا التداخل من أجل ترسيخ هذه المعاني في النفس حتى يتفجر منها العمل الصالح المؤسس على العقيدة ، كان يكفي أن يقال : إن الله يأمر بالعدل ، والعدل كلمة جامعة فضفاضة واسعة يتسع معناها حتى يشمل كل هذه المعاني التي تراها في الإحسان وتراها في ذي القربى ؛ إذ هما داخلان فيها كما يدخل فيها النهي عن الفحشاء والمنكر إذ إن من يأمر بالعدل ينهي عن الفحشاء والمنكر ؛ لأن من يأمر بالعدل لا يأمر قطعًا بكل ما يضاد هذا العدل . والفحشاء والمنكر داخلان في هذا الضد ، ولذا كان الذكر تأكيدًا لهذه المعاني في النفس ، وزيادة لها في التثبيت والتقرير ، ولذا يقول أبو هلال : «وقلّ ما تجد قصة لبني إسرائيل في القرآن إلا مطوّلة مشروحة ومكررة في مواضع معادة ؛ لبعد فهمهم وتأخر معرفتهم وكلام الفصحاء إنما هو شوب الإيجاز بالإطناب ، والفصيح العالي بما دون ذلك من القصد المتوسط ليستدل بالقصد على العالي وليخرج السامع من شيء إلى شيء ، فيزداد نشاطه وتتوفر رغبته فيصرفوه في وجوه الكلام إيجازه وإطنابه حتى استعملوا التكرار ليؤكد القول للسامع وقد جاء في القرآن وفصيح الشعر فيه كثير ... ولابد للكاتب في أكثر أنواع مكاتباته من شعبة من الإطناب يستعملها إذا أراد المزاوجة بين الفصلين بقصد الإيجاز والإطناب ، ولا يعاب ذلك منه فيكون الأخير داخلاً في معناه في الفصل الأول إلخ»[1] .

* * *

(١) انظر : الصناعيين ، ص ٢١٢-٢١٤ تحقيق مفيد قيمحة ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان .

تعريف المسند

إذا كنت تجري حديثًا مع مخاطب لك وأردت أن تخبره عن انطلاق زيد ولم يكن يعرف شيئًا عن هذا الانطلاق قلت له : زيد منطلق ، فهذا حديث مع من لم يعرف أن انطلاقًا قد كان لا من زيد ولا من عمرو فأنت تقول له : زيد منطلق لتفيده ذلك ابتداء ، فإذا كنت تجري حديثك مع مخاطب لك يعلم كل العلم أن انطلاقًا قد وقع ، ولكنه لا يدري ممن وقع هذا الانطلاق أمن زيد؟ أم من عمرو؟ وأردت أن تعلمه أنه وقع من زيد كان قولك له : زيد المنطلق فأنت بهذا تخبره أن الانطلاق الذي يعلمه ويحتمل وقوعه عنده من زيد أو من عمرو، إنما وقع من زيد دون غيره .

فمخاطبك الذي تجري معه حديثك في الصورة الأولى الذي يكون المسند فيها نكرة لا يعلم أن انطلاقًا وقع .

وفي الصورة الثانية الذي يكون المسند فيها معرفة يعلم أن انطلاقًا وقع ولكنه لا يدري ممن وقع .

هذا هو الأساس الذي يقوم عليه الفرق بين الصورتين .

يقول عبد القاهر مبينًا العلة : (والنكتة أنك تثبت في الأول الذي هو قولك : زيد منطلق فعلاً لم يعلم السامع من أصله أنه كان ، وتثبت في الثاني الذي هو (زيدُ المنطلق) فعلا قد علم السامع أنه كان ، ولكنه لم يعلم لزيد فأفدته ذلك)[1] .

ويزيد عبد القاهر شرح الفرق بين الإخبار بالنكرة زيد منطلق ، والإخبار بالمعرفة زيد المنطلق فيبين أنك عند الإخبار بالنكرة تستطيع أن تأتي بمبتدأ

---

(١) دلائل الإعجاز ص ١١٧ ، ١١٨ طبعة المنار .

ثان بعد تمام الجملة الأولى ، وتشركه بحرف العطف في المعنى الذي أخبرت به عن الأول فتقول : زيد منطلق وعمرو ، لكنك في التعريف لا تستطيع ، فلا يجوز لك أن تقول : زيد المنطلق وعمرو .

وذلك لأنك مع النكرة لا تتحدث عن انطلاق معروف فيجوز لك أن تشرك عمرًا فيه ، أما في الثاني فإنك أثبت أن انطلاقًا مخصوصًا قد كان من واحد فإذا أنت أثبته لزيد لم يصح إثباته لعمرو ، ولا يصح أن تقول إن الانطلاق المخصوص المجدد قد كان من زيد وعمرو ، فنعطف عمرًا عليه لأن الأمر إذا كان كذلك وكان هذا الانطلاق المخصوص قد كان من زيد وعمرو فإنك ساعتها تخبر بطريق آخر ، فتقول : زيد وعمرو هما المنطلقان ، فتجمع بينهما لا أن تفرق فتثبته أولا لزيد ثم تجيء فتثبته لعمرو فتقول زيد المنطلق وعمر لأن هذا لا يصح .

واستشهد عبد القاهر لذلك فقال : ومن الواضح في تمثيل هذا النحو قولنا هو القائل بيت كذا : كقولك جرير هو القائل .. فأنت لو حاولت أن تشرك في هذا الخبر غيره فتقول : جرير هو القائل هذا البيت وفلان حاولت محالا لأنه قوله بعينه فلا يتصور أن يشرك جريرًا فيه غيره) .

وقد يفيد تعريف المسند بلام الجنس قصر المسند على المسند إليه لقصد المبالغة تقول : زيد هو الجواد وعمرو هو الشجاع ، فتفيد قصر جنس الجود على زيد وقصر جنس الشجاعة على عمرو ، والقصر هنا للمبالغة لبيان أن زيدًا هو الكامل في الجود ، وأن عمرًا هو الكامل في الشجاعة ، وليس القصر الحقيقي الذي يفيد أن صفة الجود لا تتحقق في أحد إلا في زيد وأن صفة الشجاعة لا تتحقق في أحد إلا في عمرو على جهة الحقيقة التحقيقية ، وإنما تقصد المبالغة في وصف زيد بالجود وعمرو بالشجاعة فنتخيّل بهذا قصر هذه الصفات على المذكورين للمبالغة بحيث لا يقام اعتبار لوجود هاتين الصفتين في غيرهما .

والقصر بهذا المعنى لا يجوز فيه العطف فلا تقول : زيد الشاعر وعمرو وإنما تقول : زيد الشاعر ، فإذا أردت إشراك عمرو في هذه الصفة ، فإنك تقول : زيد وعمرو الشاعران ، على معنى عدم الاعتداد بشعر غيرهما على نحو ما شرح ذلك الإمام عبد القاهر .

انظر إلى قول المتنبي :

يا أعدل الناس إلا في معاملتي ... فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

أراد بقوله : (وأنت الخصم والحكم) أنه لا خصم ولا حكم سواه إذ إنه قصر وصفى الخصومة والحكومة وهما معرفان بلام الجنس على ضمير المخاطب (أنت) ومثله قوله أيضًا :

ودع كل صوت غير صوتي فإنني ... أنا الصائح المحكي والآخر الصدى

أراد أن يبين أنه وحده هو الذي يروي شعره فلا أحد غيره يرويه ، وأن غيره من الشعراء إنما يمضون على طريقه ، وينهجون سبيله ، والقصر من هذا النوع قد يكون حقيقيًا إذا لم يكن معنى الجنس موجودًا في غير المسند إليه كما في قولك : الله الخالق إذ لا يوجد قطعًا وعلى وجه الحقيقة خالق غيره ولا يوجد سواه فالخلق مقصور على الله لا يتجاوزه إلى غيره ، ولا يتخطاه إلى سواه .

إذ إن معنى الجنس ليس موجودًا في غير المسند إليه ، وتجد هذا في قوله تعالى في سورة الحج : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ (الحج:٦٢) فجنس الحق مقصور على الله ، فلا حق غيره والباطل مقصور على ما يدعونهم من دون الله ـ الأصنام ـ والعلو والكبر مقصوران على الله سبحانه وتعالى وتجد هذا في قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (البقرة:١٢٠) . فتعريف المسند

﴿ ٱلْهُدَىٰ ﴾ أفاد قصره على المسند إليه ، على معنى أنه لا يوجد هدى على وجه الحقيقة إلا هدى الله .

ومن ذلكم النوع ما تراه في قوله تعالى في سورة طه : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ (طه:٦٧،٦٨) ولا يخفى أن ﴿ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ المعرف بلام الجنس مقصور على ضمير موسى عليه السلام والمعنى على أنك وحدك الأعلى لا هم فلا تخف .

ولاحظ أن القصر هنا إنما جاء ليثبِّت من فؤاد موسى ؛ وليُقوِّي من إحساسه بالنصر وبالغلبة إذ إن الخصوم قد حشدوا أنفسهم في مظاهرة في يوم الزينة وألقوا بحبالهم وعصيهم ، وخيل إلى موسى من أثر سحرهم أنها تسعى فتسربت هواجس الخوف إلى قلبه ـ عليه السلام ـ لذا جاء هذا التعبير القرآني : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ ليبعث الاطمئنان في صدره ، وليقوي من عزمه وليحقق له معنى الإحساس بالغلبة والنصر على كيدهم وسحرهم إنك أنت الأعلى عليهم ، أما هم فهم المهزومون .

ولاحظ التعبير (بالأعلى) التي تشعرك بالتميز والتفضيل ، ثم ضمير (أنت) الذي جاء مؤكدًا لضمير الخطاب الكاف في (إنك) مما يؤكد معنى الغلبة والاستعلاء .

وانظر إلى قول الله تعالى حاكيًا على لسان عيسى في سورة المائدة : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (المائدة:١١٨) وما تراه هنا من قصر العزة والحكمة عليه ـ سبحانه ـ فلا عزيز غيره ولا حكيم سواه .

هذا والمسند المعرف بلام الجنسية قد يقيد بقيد القصر ـ أيضًا ـ ويجعله في حكم نوع برأسه وذلك كقولك : عمرو هو الوفي حين لا تظن نفس بنفس خيرًا ، وهو الشجاع حين يتقهقر الأبطال ، وهو الكريم حين يبخل الناس فأنت

في كل هذا لا تقصر معنى الخبر على الإطلاق على المبتدأ ، ولكنك تقصر معنى الخبر مقيداً بقيد انظر إلى قول الأعشى :

هو الواهب المائة المصطفاة إما مخاضًا وإما عشارًا

فالشاعر هنا قد جعل المائة من الإبل نوعًا خاصًا ، ومن ثَمَّ فإن المراد قصر جنس معين من الإبل على الممدوح وهي الإبل المصطفاة ، أي أنه وحده لا أحد معه ولا أحد غيره هو الذي يهب هذا النوع المخصوص من الإبل فهو المختص بهبة المائة من الإبل في إحدى الحالين المخاض أو العشار ، أما مطلق هبة فله ولغيره وهذا القصر ليس على معنى المبالغة وترك الاعتداد في وجود المقصود على غير المخبر عنه ، بل على دعوى أنه لا يوجد إلا منه . يقول عبد القاهر : (والوجه الثاني أن تقصر جنس المعنى الذي تفيده بالخبر على المخبر عنه لا على معنى المبالغة وترك الاعتداد بوجوده في غير المخبر عنه ، بل على دعوى أنه لا يوجد إلا منه ، ولا يكون ذلك إلا إذا قيد المعنى بشيء يخصصه ويجعله في حكم نوع برأسه ، وذلك كنحو أن يقيد بالحال والوقت كقولك : هو الوفي حين لا تظن نفس بنفس خيراً وهكذا) [1] .

وقد يكون تعريف المسند بالمسند إليه غير مقصود به قصر المعنى في جنسه على المذكور كما مر في قولك زيد هو الشجاع ، محمد هو العالم على معنى أنك لا تعتد بشجاعة غير زيد ولا بعلم غير محمد ، ولا قصر المعنى المعين على المذكور كما مر في نحو قولك : هو الوفي حين لا تظن نفس بنفس خيراً ، ولكن يكون المقصود بتعريف المسند بالمسند إليه تقرير المسند وتثبيته للمسند إليه على معنى أن ثبوت المسند للمسند إليه أمر ثابت مقرر ، وذلك كقول الخنساء ترثي أخاها صخراً :

إذا قبح البكاء على قتيل رأيت بكاءك الحسن الجميلا

---

(١) دلائل الإعجاز ص ١١٩ المنار

لم ترد القصر على معنى أن تقصر صفة الحسن على البكاء عليه كما قصرت الشجاعة على محمد في قولك : محمد الشجاع ، ولا كما قصرت هبة الإبل المخصوصة على الممدوح لأن هذا لا معنى له ، وإنما أرادت أن تثبت لبكائه صفة الحسن وأن تقرر ذلك فتفيد أن حسنه حسن ظاهر لا ينكره أحد ، ولا يشك فيه شاك .

فليس المقصود من التعريف هنا بلام الجنس القصر ، بل تقرير معنى المسند للمسند إليه ومثل قول حسان يهجو أبا سفيان قبل إسلامه

وإن سنام المجد من آل هاشم بنو بنت مخزوم ووالدك العبد

أراد أن يثبت له العبودية ثم يجعله ظاهر الأمر فيها ومعروفًا بهذا ولو قال : ووالدك عبد لم يكن قد جعل حاله في العبودية حالة ظاهرة متعارفة وعلى ذلك قول الآخر :

أسود إذا ما بدت الحرب نابها وفي سائر الدهر الغيوث المواطر

أراد أن يقرر معنى المسند (الغيوث المواطر) للمسند إليه الممدوحين ليس على معنى القصر بمعنى أنهم لا غيرهم الغيوث المواطر بل على معنى أن هذه الصفة متقررة لهم وثابتة ، ولا أحد يجادل فيها ، أو يختلف عليها وهناك وجه آخر لتعريف المسند بالألف واللام أشار إليه عبد القاهر وذلك إنما يتحقق حينما تتوهم في نفسك وصفًا أو شيئًا ثم تخبر به عن المبتدأ وتقصره عليه على معنى أن لا يوجد إلا فيه ولا يتحقق إلا له ومثال ذلك هو البطل المحامي على معنى أن تقول للمخاطب هل تصورت البطل المحامي وهل توهمته وكيف يكون الإنسان حتى يبلغ في هذه الصفة مبلغها الأعلى .

يقول عبد القاهر : (واعلم أن للخبر المعرف بالألف واللام معنى غير ما ذكرت لك وله مسلك ثم دقيق ولمحة كالخَلْس يكون المتأمل عنده كما يقال يعرف وينكر وذلك قولك هو البطل المحامي وهو المتقى المرتجى

وأنت لا تقصد شيئًا مما تقدم فلست تشير إلى معنى قد علم المخاطب أنه كان ولم يعلم أنه ممن كان ، كما مضى في قولك زيد هو المنطلق ولا تريد أن تقصر معنى عليه على معنى أنه لم يحصل لغيره على الكمال كما كان في قولك : زيد هو الشجاع ، ولا أن تقول إنه ظاهر بهذه الصفة ، كما كان في قولك له : ووالدك العبد ولكنك تريد أن تقول لصاحبك : هل سمعت بالبطل المحامي ؟ وهل حصلت معنى هذه الصفة ؟.

وكيف ينبغي أن يكون الرجل حتى يستحق أن يقال ذلك له وفيه ؟ فإن كنت قد قلته علمًا ، وتصورته حق تصوره ، فعليك صاحبك واشدد به يدك فهو ضالتك وعنده بغيتك ، وطريقه كطريق قولك : هل سمعت بالأسد ؟ وهل تعرف ما هو ؟ فإن كنت تعرفه فزيد هو هو بعينه [1]

وقال : ويزداد هذا المعنى ظهورًا بأن تكون الصفة التي تريد الإخبار بها عن المبتدأ مجراة على موصوف ، كقول ابن الرومي :

هو الرجل المشروك في جل ماله ولكنه بالمجد والحمد مفرد

كأنه يقول للسامع : فكر في رجل لا يتميز عُفاتُه وجيرانه ومعارفه عنه في ماله وأخذوا ما شاءوا منه ، فإذا حصلت صورته في نفسك فاعلم أنه ذلك الرجل)[2].

ونبه عبد القاهر إلى أن المزية العظمى في التعبير عن الأمر الموهوم الذي يرى قصره على المسند إليه هي (للذي) ولعل ذلك ؛ لأن دلالتها على الشيء مع صفته أظهر وأقوى من الوصف المعرف بالألف واللام ، وذلك كقول الشاعر :

أخوك الذي إن تدعه لملمة يجبك وإن تغضب إلى السيف يغضب

---

(١) دلائل الإعجاز ص ١٢١ طبعة المنار .

(٢) المصدر السابق صـ ١٢١ ، ١٢٢ .

وقول الآخر :

أخوك الذي إن ربته قال إنما أربت وإن عاتبته لان جانبه

(فهنا ونحوه على أنك قدرت إنسانًا هذا صفته ، وهذا شأنه ، وأحلت السامع على من يتعين في الوهم دون أن يكون قد عرف رجلا بهذه الصفة فأعلمته أن المستحق لاسم الأخوة هو ذلك الذي عرفه ، حتى كأنك قلت : أخوك زيد الذي عرفت أنك إن تدعه لملمه يجبك) ومضى عبد القاهر يبين أصالة (الذي) في التعبير عن الأمر المتوهم ، فجعل لها خصوصية في التعبير عن الشيء المستحيل ، ومن المعروف أن الشيء المستحيل أبعد في العدم من المتوهم يقول عبد القاهر :

(ولكون هذا الجنس معهودًا من طريق الوهم والتخيل جرى على ما يوصف بالاستحالة ، كقولك للرجل قد تمنى : هذا هو الذي لا يكون وهذا ما لا يدخل في الوجود) .

هذا ، ولعل مراد عبد القاهر بالجنس المعهود بطريق التوهم والتخيل جنس الموصولات بدليل استشهاده بما الموصولية في قوله :

ما لا يكون فلا يكون بحيلة أبدًا وما هو كائن سيكون [(١)]

* * *

(١) دلائل الإعجاز ص ١٢٣ .

تنبيهان

التنبيه الأول :

فرق عبد القاهر بين قولك : (المنطلق زيد) وبين (زيد المنطلق) بأنه يظهر في قولك : (زيد المنطلق) أنك تخبر بأن انطلاقًا قد كان ، وعلم مخاطبك بهذا إلا أنه لا يعلم ممن وقع هذا الانطلاق أمن زيد؟ أم من عمرو؟ فإذا قلت : زيد المنطلق ، فقد أزلت الشك عنه وجعلته يقطع بأنه كان من زيد بعد أن كان يرى ذلك على سبيل الجواز ، وليس كذلك إذا قدمت (المنطلق) فقلت : المنطلق زيد ، يكون المعنى حينئذ على أنك رأيت إنسانًا ينطلق بالبعد منك فلم يثبت ولم تعلم : أزيد هو أم عمرو ؟ فقال لك صاحبك : المنطلق زيد ، أي الذي تراه من بعد هو زيد .

التنبيه الثاني :

ينبغي أن يعلم أن الأصل في المبتدأ أن يكون معلومًا ؛ لأن المبتدأ هو الذي تخبر عنه ، ولا يستقيم في العقل أن تخبر عن مجهول وإنما ينبغي أن يكون معلومًا عند المخاطب ، ولذا لا يأتي نكرة إلا بمسوغ (أي مفيد) أما الخبر فهو ما تخبر به ، ومن ثَمَّ فلا ما نع من أن يكون مجهولا للمخاطب ، لكن الخبر إذا كان معرفة فلابد أن يكون المبتدأ معرفة كذلك .

ولذلك إذا اجتمع لك معرفتان فأيهما تقدم وأيهما تؤخر ؟ قال البلاغيون : إنك تبتدئ بالمعروف لك ، ولذا في المثال السابق المنطلق زيد يكون الذي تراه منطلقًا أعرف من زيد عندك ؛ لأنه أمام عينيك تراه وتبصره وهو منطلق وتجهل أنه زيد ، فحينما تقول : المنطلق زيد فقد بدأت بما هو أعرف .

ولقد أشار السعد فوضح هذا بما لا يلتوي ولا يغمض ، وبين أنه إذا كان

للشيء صفتان من صفات التعريف وكان السامع عالمًا باتصافه بإحداهما دون الأخرى فأيهما كان بحيث يعرف السامع اتصاف الذات به ، وهو كالطالب أن تحكم عليه بالأخرى وجب أن تقدم اللفظ الدال عليه وتجعله مبتدأ ، وأيهما كان بحيث يجهل اتصاف الذات به وجب أن تؤخر اللفظ الدال عليه وتجعله خبرًا .

فإذا عرف السامع زيدا بعينه واسمه ولم يعرف اتصافه بأنه أخوه وأردت أن تعرفه ذلك ، قلت : زيدا أخوك ، وإذا عرف شخصًا معينًا بأنه أخ له ولا يعرف اسمه على التعيين وأردت أن تعينه عنده ، قلت : أخوك زيد ولا يصح بلاغة أن تقول : زيد أخوك ويتضح هذا من قول : رأيت أسودًا غابها الرماح ، ولا يصح رماحها الغاب ، ذلك لأن المعلوم للأسود الغاب وليس الرماح ، ومن ثَمَّ كان تقديم الغاب تقديمًا لما هو معروف ، ومن هنا قيل في بيت السقط .

يخوض بحرًا نقعه ماؤه

إن الصواب ماؤه نقعه ، لأن السامع يعرف أن له ماء وإنما يطلب تعيينه[1].

هذا ولما كان الأصل في المبتدأ أن يكون ذاتًا ، والمبتدأ هو المحكوم عليه وفي الخبر أن يكون صفة وهو المحكوم به وكان ذلك مشعرًا باعتراض حاصله . أن زيدًا متعين للابتداء ؛ لأنه محكوم عليه تقدم أو تأخر ، ذكر ذلك الخطيب وأجاب عليه بقوله : (إن المنطلق لا يجعل مبتدأ إلا بمعنى الشخص الذي له الانطلاق ، وإنه بهذا المعنى لا يجب أن يكون خبرًا ، وزيد لا يجعل إلا بمعنى صاحب اسم زيد ، وإنه بهذا المعنى لا يجب أن يكون مبتدأ)[2].

ومعنى هذا أنك تقدر في قولك : (المنطلق زيد) ذات المنطلق هي صاحبة زيد أو المسماة بهذا الاسم ، وبهذا تنقلب الصفة إلى معنى الذات فيحكم عليها ، وينقلب الاسم إلى معنى الصفة فيحكم به .

---

(١) المطول ص١٧٦ ، ١٧٧ .

(٢) بغية الإيضاح ١/٢٠٤ .

الفرق بين المعرف بالإضافة والمعرف بأل :

المعرف بالإضافة كما في قولك : على صهرك ، للإشارة بها إلى إنسان معهود في الخارج موصوف بالمصاهرة وإن لم يكن معينًا عند المخاطب ، فالمسند في المثال السابق معرف بالإضافة ، وهي موضوعة لتعريف العهد الخارجي ؛ ولذا لا يصح أن يقال : على صهرك إلا لمن يعلم على الإجمال أن له صهرًا معينًا ، وأنه في الخارج .

أما المعرف بأل ، وهي قد تكون للعهد الخارجي أو للجنس ، ففي قولك : محمد الفائز تكون أل هنا للعهد ، إذا كان المراد بالفائز هنا شخصًا معينًا ثبت له الفوز ، وإن لم يكن معلومًا على التعيين عند المخاطب ، إنما لابد أن يكون معلومًا له على الإجمال أن في الخارج شخصًا معينًا فائزًا ويكون المعنى على أن قولك : (محمد الفائز) أن محمدًا هو الشخص الذي ثبت له الفوز .

أما إن كانت أل في (محمد الفائز) لتعريف الجنس ، كان المراد بـ (الفائز) الحقيقة المعلومة للمخاطب ، وهي ذات ما ثبت لها الفوز من غير إشارة إلى معين خارجًا فمعنى قولك : (محمد الفائز) أن محمدًا ثبتت له هذه الحقيقة من حيث هي دون نظر إلى تحققها في معين خارجًا .

* * *

تقديم المسند

يقدم المسند لأغراض بلاغية منها :

تخصيصه بالمسند إليه تقول : مسلم أنا ، فتقدم المسند لتقصر المتكلم على الإسلام لا يتعداه إلى غيره ولا يتجاوزه إلى سواه فتقديم ما حقه التأخير يفيد معنى التخصيص وفي قوله تعالى في سورة الشورى : ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ (الشورى:٤٩) ففي تقديم الجار والمجرور (المسند) (لله) بيان إلى أن ملك السماوات خاص به سبحانه وفي قوله تعالى في سورة الصافات حكاية عن خمر الجنة : ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ بيان إلى أن عدم الاغتيال خاص بها .

يقول الزمخشري : (المعنى لا فيها فساد قط من أنواع الفساد التي تكون في شرب الخمر من مغص أو صداع أو عربدة أو لغو أو تأثيم أو غير ذلك ولا هم يسكرون وهو أعظم مفاسدها فأفرده بالذكر) [1].

ففي الآية قصر طريقة تقديم ما حقه التأخير ، إذ قصر عدم الغول على خمر الجنة بحيث لا يتجاوزه إلى خمور الدنيا ، فإذا كانت خمور الدنيا تفترس العقول وتغتالها فإن خمور الجنة ليس فيها شيء من هذا .

وفي قول أبي العلاء المعري الذائع :

تعب كلها الحياة فما أعجب إلا من راغب في ازدياد

ترى الشاعر قد قدم المسند (تعب) فأفاد هذا التقديم قصر الحياة على التعب فلا شيء فيها غيره ، فهي بكل ما فيها مقصورة على التعب والشقاء واقرأ

---

(١) الكشاف ، ٣/٣٤٠ ، والآية في سورة الصافات ٤٧ .

قول الله تعالى في سورة الأنبياء : ﴿ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ (الأنبياء:٩٧) ففي التقديم لكلمة (شاخصة) إفادة كاملة لما تحقق لتلك الأبصار من كونها ليست إلا شاخصة .

فالأبصار مختصة بالشخوص لا تتجاوزه إلى شيء آخر كالحيرة ، والطموس وغير ذلك من ألوان العذاب ووازن بين التعبير القرآني : ﴿ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا ﴾ وبين ما لو قيل في غير القرآن ﴿ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ﴾ وستجد أن التعبير القرآني لما قدم (المسند) شاخصة أفاد أن الأبصار بسبب ما يقع في هذا اليوم قد اختصت من بين صفاتها بالشخوص كما أن تقديم الضمير في قوله : (هي) فإذا هي شاخصة يدل على أنهم وحدهم المختصون بالشخوص من بين سائر أهل المحشر[1].

ولذا بينت الآية أن هؤلاء المختصين بالشخوص من بين سائر أهل المحشر والشاخصة أبصارهم في ساحة الحشر يقولون (يا ويلنا) قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين ، وهو ويل وصراخ وثبور لن يغني عنهم من الله شيئًا ، ذلك أنه ندم قد جاء بعد ضياع الفرصة ، وفوات الأوان .

ومما يجيء التقديم من الظروف مفيدًا للتخصيص لا غير كما أشار إلى ذلك العلوي ما تراه في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ (الغاشية:٢٥،٢٦) وفي قوله تعالى : ﴿ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ (الشورى:٥٣) وقوله تعالى : ﴿ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ﴾ (التغابن:١) فالمعنى في كل ذلك على أن إيابهم ليس إلا لله وأن حسابهم عليه وحده ، وأنه سبحانه مختص بصيرورة الأمور إليه دون غيره ، وأن الملك له وحده ، وكذا الحمد إذ

---

(١) الطراز ٢/٦٩ .

الملك ليس لأحد إلا له ومثل ذلك الحمد يقول العلوي : (فهذه الظروف لا وجه لتقديمها على عاملها إلا ما ذكرناه من الاختصاص)[1].

هذا والمعروف أن ابن الأثير يرى أن التقديم إنما يكون للمطابقة اللفظية في تناسب رءوس الآيات وتشاكلها فالتقديم في مثل قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (الفاتحة:٥) وهو من باب تقديم المفعول وفي مثل قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ (القيامة:٢٢،٢٣) وقوله تعالى:﴿ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴾ (القيامة:٢٩،٣٠) وقوله سبحانه : ﴿ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴾ (القيامة:١١،١٢) وقوله سبحانه : ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (هود:٨٨) وقوله تعالى : ﴿ وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ (مريم:٤٠) ، التقديم هنا في هذا كله يحقق التوازن الإيقاعي والتناسب النغمي ، فالتقديم في قوله تعالى : ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ ليكون متوافقًا مع رءوس الآيات ، التي وردت في السياق فيؤدي إلى حسن التناغم إذ لو لم يقدم لذهب هذا الحسن الذي تراه وأنت تقرأ الآية التي ورد فيها التقديم مع سياقها من قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ۝٢٤ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ .

والتقديم في قوله تعالى : ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴾ كذلك أيضًا لتناسب رءوس الآيات في قوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ۝٢٦ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ۝٢٧ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ۝٢٨ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴾ وهكذا ، وحجة ابن الأثير في ذلك أن التأخير يفسد حلاوة النغم ويذهب بحسن الإيقاع ، وإن كان لا ينكر أن الاختصاص مستفاد منها ولكن إفادة الاختصاص في هذه الآيات وفيما هو على مثالها إنما جاء من طبيعة المعنى الذي لا يفهم إلا على أساسه بقرائن أخرى ، إذ إن المساق والمستقر وغير

---

(١) الطراز ٢/٧١ .

ذلك ليس لأحد إلا الله سبحانه ، فالمساق إليه وحده ، والمستقر ليس إلا له لا لغيره ، وهكذا .

وتابع العلوي ابن الأثير في أن التقديم يحقق ميزة التناسب بين رءوس الآيات ، ويحقق عذوبة في الإيقاع الصوتي ، ثم طرح سؤالاً في شأن تقديم المفعول وهو جار على كل تقديم ، هل يكون تقديم المفعول من أجل الاختصاص ، أو من أجل المشاكلة لرءوس الآيات ؟ وبين أن في هذا مذهبين :

الأول : مذهب صاحب الكشاف : الذي يرى أن تقديم المفعول إنما يفيد الاختصاص يقول العلوي ، وهذا رأي أكثر البيانيين لأن الاختصاص يفيد فائدة معنوية ، فالمفعول إذا قدم أفاد الاختصاص كما في قولنا : زيداً ضربت ، وكما في قوله تعالى : ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ (الزمر:٦٦) فقدم المفعول ولم يقل بل اعبد الله ، وذلك من أجل الاختصاص وقدم في قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (الفاتحة:٥) من أجل ذلك أيضًا ، ويرفض العلوي أن تكون العلة هنا الاختصاص لا غير ؛ لأن الأمر لو كان كذلك لجرى في كل ما هو على شاكلته في المعنى ، وقد جاء في القرآن بعدم التقديم كما في قوله تعالى : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴾ (قريش:٣) وكما في قوله : ﴿ وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ (النساء:٣٦) وقوله سبحانه : ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ ﴾ (الحجر:٩٩) ولو كان التقديم للمفعول من أجل الاختصاص لجرى في كل الآيات ، ولما ورد مؤخرًا عن الفعل والمعنى واحد .

المذهب الثاني : أنه إنما قدم من أجل المشاكلة لرءوس الآيات ، ومراعاة حسن الانتظام ، واتفاق أعجاز الكلم السجعية كما في قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ قدم هنا حتى يتحقق التوافق الشكلي بين رأسي الآيتين ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ إذ لو لم يقدم وقال : (نعبدك) لذهبت ميزة التناسب الصوتي ، ولتلاشى حسن الإيقاع ،

وبين العلوي أن هذا هو ما اختاره ابن الأثير وارتضاه ، لكن المختار عنده عدم التنافي بين الأمرين (حلاوة الإيقاع والاختصاص) فيجوز أن يكون التقديم من أجل الاختصاص فيحقق فائدة ترجع إلى المعنى ، ويكون للتوافق النغمي فيحقق فائدة لفظية ، وعليه فيكون التقديم عند العلوي مراعاة لجانب اللفظ والمعنى جميعًا إذ الاختصاص أمر معنوي والتشاكل الصوتي أمر لفظي وعلى هذا ورد قوله تعالى : ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴾ (الحاقة:٣٠،٣١) وقوله تعالى : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾ (طه:٦٧) وقوله سبحانه : ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ (الضحى:٩،١٠) وقوله تعالى: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ ﴾ (يس:٣٩) ولم يقل : (وقدرنا القمر) ليطابق ما تقدم من الجمل الابتدائية في قوله تعالى : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ۝٣٧ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٣٨ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾ (يس:٣٧-٣٩) إذ بالتقديم تحصل ملاحظة الأمرين .

والعلوي هنا فاهم لأنه لا تزاحم بين النكات البلاغية ، فمن الممكن أن يكون وراء التعبير عن الشيء أكثر من سر بلاغي[1].

ونخلص إلى أن التقديم للمفعول يفيد الاختصاص عند الزمخشري وجمهور البيانيين ، وعند ابن الأثير إنما يكون التقديم من أجل تناسب رءوس الآيات ، ومراعاة حسن الانتظام وإنما يفاد الاختصاص من قرائن خارجية كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ فالاختصاص هنا لم يتحقق بسبب التقديم ، وإنما لوجود قرائن تحتم أن الإياب ليس إلا إلى الله وأن الحساب ليس إلا عليه .

وأما العلوي فلا يوافق الزمخشري على أن تقديم المفعول يفيد الاختصاص

---

(١) انظر الطراز ٢/٦٨ ، ٦٩ .

على القطع ؛ لأن من الآيات ما جاءت مرة بالتقديم كما في قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ فلم يقل : أعبدك ولم يقل : اعبد الله إذ جاء التعبير القرآني بتقديم المفعول وجاء مرة أخرى بالتأخير ، كما تراه في قوله تعالى : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ ﴾ .

ويقول العلوي في رده على الزمخشري : (ولو كان التقديم من أجل الاختصاص لوجب تقديمه في هذه الآيات كلها ، فلما ورد مؤخرًا عن الفعل والمعنى واحد بطل ما قاله) [1].

ولذا فرأى العلوي في تقديم المفعول أن يكون التقديم من أجل الاختصاص ، والتشاكل اللفظي معًا فيكون في التقديم مراعاة لجانب اللفظ والمعنى جميعًا ، فالاختصاص أمر معنوي والتشاكل أمر لفظي وعلى هذا ورد قوله تعالى : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴾ .

أما تقديم الظرف فرأى ابن الأثير أنه للتناسب بين رءوس الآيات ، لكن العلوي يرى أن الظرف إذا جاء في النفي فإنما يفيد الاختصاص مرة واحدة كما في قوله تعالى : ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ (الصافات:٤٧) لأن القصد تفضيلها على غيرها من خمور الدنيا ، والمعنى ليس فيها ما في غيرها من الغول وهو الخُمارَ الذي يصدع الرءوس ، أو يريد أنها لا تغتالهم بإذهاب عقولهم كما في خمور الدنيا (ولا ينزفون) أي لا يسكرون من الإنزاف وهو السكر .

---

(١) الطراز ٢/٦٦ .

وأما إذا جاء الظرف مقدمًا في الإثبات فتقديمه على عامله إنما يكون لغرض لا يحصل مع تأخيره ، ومنه ما يكون واردًا للدلالة على الاختصاص كما في قوله تعالى : ﴿ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ (الشورى:٥٣) لأن المعنى أن الله مختص بصيرورة الأمور لديه ونحو قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ (الغاشية:٢٥،٢٦) وقوله تعالى : ﴿ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (التغابن:١) ومنه ما يكون تقديمه لأجل مشاكلة رءوس الآيات كما في قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ (القيامة:٢٢،٢٣) وقوله تعالى : ﴿ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴾ (القيامة:٢٩،٣٠) .

لكن العلوي يرى أن ما جاء تقديمه لأجل مشاكلة رءوس الآيات في الظرف شأنه شأن تقديم المفعول من أنه يفيد مع المشاكلة اللفظية غرضًا معنويًا ، وهو الاختصاص فيكون التقديم هنا للأمرين معًا : التناسب النغمي والتوازن الصوتي ، والاختصاص ، والنكات البلاغية لا تتزاحم[1].

هذا ، ومن أغراض تقديم المسند على المسند إليه التنبه من أول الأمر على أنه خبر لا صفة ، وذلك كما ترى في مدح حسان رضي الله عنه لرسول الله ﷺ .

له همم لا منتهى لكبارها وهمته الصغرى أجل من الدهر

فهمَمُه العالية تزحم الأفق ، وتسد مطالع الشمس ، وهي من الكثرة بحيث تتفوق على كل عد ، وكل حساب ، أما همته الصغرى فهي تعلو على همة الدهر ؛ إذ هي فوقه فلا يستطيع أن يحول دون تنفيذ إرادته .

وأنت تنظر فترى قوله : (له) قد قدم على المبتدأ (دهر) للتنبيه بهذا التقديم على أن المقدم (خبر) إذ لو أخر فقيل (همم له) لأوهم هذا التأخير أنه نعت إذ حاجة النكرة إلى الصفة أكثر من حاجتها إلى الخبر .

---

(١) انظر الطراز ٢/٦٧-٧٢ .

وقد يكون الغرض من تقديم المسند التشويق إلى ذكر المسند إليه كما في قول أبي العلاء المعري :

وكالنار الحياة فمن رماد أواخرها وأولها دخان

فالحياة كالنار في كونها تبدأ ضعيفة غير مشتعلة ولا متوهجة دخان ، ثم تقوى وتشتد حتى تصير لهيبًا ، ثم تخمد وتصير رمادًا ، وهكذا شأن الإنسان يولد طفلاً ضعيفًا ، ثم ينمو شيئًا فشيئًا حتى يصير فتى قويًا ، ثم يبدأ تدريجيًا في النزول فيهرم ويعود كما بدأ ضعيفا ، وإذا كانت ضعيفة في البداية وضعيفة في النهاية فإن المعتد به منها فترة الشباب الوسط ، والشاهد تقديم المسند (كالنار) ليفيد التشويق إلى ذكر المسند إليه ، ومثله في تقديم المسند لإفادة التشويق إلى المسند إليه قول محمد بن وهيب :

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها شمس الضحى وأبو إسحاق والقمر

فإنه لما قال : (ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها) تطلعت النفوس في شوق ولهفة إلى أن تعرف من هم الثلاثة الذين يطلعون على الدنيا فتشرق بالبهجة والفرحة ؟ إذ في هذا ما يبعث الأشواق في القلوب الصادية التي تحب أن ترتوي بمعرفة هؤلاء الثلاثة فإذا جاء المسند إليه ، استقر في النفس استقرارًا حسنًا ونال عندها الرضى والقبول .

وقد روى صاحب معاهد التنصيص على شواهد التلخيص أن أبا مُحَلِّم حدَّث فقال : اجتمع الشعراء على باب المعتصم فبعث إليهم محمد ابن عبد الملك الزيات فقال لهم : إن أمير المؤمنين يقول لكم : من كان منكم أن يحسن أن يقول مثل قول النميري في الرشيد :

خليفة الله إن الجود أوديةٌ أحلَّكَ الله منها حيثُ تجتمعُ

من لم يكن ببني العباس مُعْتَصِمًا فليسَ بالصلَوات الخَمْسِ يَنْتَفِعُ

إن أخلفَ القَطْرُ لَمْ تُخْلِفْ مَخايِلُه أو ضَاقَ أمرٌ ذكرناه فَيَتَّسِعُ

فيدخل وإلا فلينصرف ، فقام محمد بن وهيب ، فقال : فينا من يقول مثله ، قال : فأي شيء قلت ؟ فقال :

ثلاثة تُشرِق الدنيا ببهجتها ... شمسُ الضحى وأبو إسحاقَ والقمرُ
فالشمس تحكيه في الإشراق طالعة ... إذا تقطع عن إدراكها النظر
والبدرُ يحكيه في الظلماء مُنْبلجًا ... إذا استنارتْ لياليه به الغُررُ
يحكي أفاعيلَهُ في كل نائبة ... الغيثُ والليثُ والصمصامة الذكَر
فالغيث يحكي ندى كفيه منهمرًا ... إذا استهل بصوب الديمة المطر
وربّما صال أحيانا على حنقٍ ... شبيه صوْلته الضِّرغامة الهَصَرُ
والهُندُواني يحكي من عزائِمه ... صيرمةَ الرأي منه النقض والمرَرُ

فأمر بإدخاله وأحسن صلته وليس في الأبيات التي ذكرت ونسبت إلى (النميري) ما يرفعها إلى مستوى المختار المنْخُول وإنما فضلها المعتصم لما فيها من إشادة به وثناء ومديح . ويكفي ما في قوله :

وأنت جامعٌ ما فيهن من حُسْنٍ ... فقد تكامل فيك النفعُ والضرر
فالخلقُ جسمٌ له رأس يُدبّرُه ... وأنت جارحتاه السّمعُ والبصرُ

ومما جاء على مثال : ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها ، وجرى مجرى الملح والطرف ما ترى في قول الشاعر :

ثلاثة طاب بها المجلس ... الورد والتفاح والنرجس

وقول الآخر :

ثلاثة تذهب عن قلبي الحزن ... الماء والخضرة والوجه الحسن

وقول غانم المالقي :

ثلاثة يُجْهل مقدارها ... الأمن والصحة والقوت
فلا تثق بالمال من غيرها ... لو أنه در وياقوت

وأنشد ثعلب :

ثلاث خلال للصديق جعلتها مضارعة للصوم والصلوات

مواساته والصفح عن كل زلة وترك ابتذال السر في الخلوات[1]

وقد يكون الغرض من وراء تقديم المسند التفاؤل وعدم التطير ، كقول الشاعر :

سعدت بغرة وجهك الأيام وتزينت ببقائك الأعوام

قدم المسند لتحقيق التفاؤل وعدم التطير ، فعندما يسمع المخاطب أول ما يسمع قوله : (سعدت) فإن البهجة تدخل على نفسه ، والسرور يملأ صدره غير أنه قيل : إن المسند في هذه الأبيات (فعل) والفعل مرتبته التقديم على الفاعل فإذا جاء مقدمًا كما هنا فلأن هذه رتبته وذلك محله ، فلا يكون تقديمه للتفاؤل وإنما لأن قواعد النحو تقتضيه ؛ لأن التقديم الذي يحدث أثره هو ذلك التقديم الذي يأتي من تأخير .

ولقد تعرض الدسوقي في شروح التلخيص للرد عليها بعد أن صور الاعتراض فلنستمع إليه يقول : (لا يقال هذا المسند فعل يجب تقديمه على فاعله فليس تقديمه للتفاؤل ، إذ لا يقال في المسند قدم لغرض كذا إلا إذا كان جائز التأخير على المسند إليه ، لأنا نقول : التمثيل مبني على مذهب الكوفيين المجوزين لتقديم الفاعل على الفعل . أو يقال : إن الفعل هنا يجوز تأخيره في تركيب آخر بأن يقال : الأيام سعدت بغرة وجهك على أنه من باب الإخبار بالجملة ، لا على أن يكون فعلا فاعله تقدم عليه ، فتقديم (سعدت) في هذا التركيب المؤدي إلى كون المسند إليه فاعلا ، مع صحة تأخيره باعتبار تركيب آخر لأجل ما ذكر من التفاؤل ، بخلاف لو أخر (سعدت) بالنظر للتركيب الآخر ، فلا يكون فيه تفاؤل[2].

* * *

(١) انظر معاهد التنصيص ١/٢١٥-٢٢٠ .

(٢) حاشية الدسوقي ٢/١١٥ .